١ السرقة العجيبة

وثب بيشو فى سيارة الأجرة ، واندفع الى مكتب بارنيت كالعاصفة .
ورحب بارنيت به قائلا :

- آه هذا جميل منك ، فقد افترقنا فى ذلك اليوم بكل برود ، وخشيت أن تكون غاضباً مني . فما الامر ؟ .. هل أنت بحاجة اليّ ؟

نعم يا بارنيت .

هز بارنيت يدية في قوة وقال : هذا حسن ، ولكن ما الامر ؟ أن وجهك شديد الاحمرار ، فهل انت مصاب بالحصبه .

- لا تسخر يا بارنيت فالموقف عسير وأريد أن أخرج منه مرفوع الرأس

- ما الخبر أذن ؟

- ان الامر يتعلق بزوجتي .

- زوجتك ؟ وهل أنت متزوج ؟

- بل مطلق .. منذ ست سنوات .

- لتنافر الطباع ؟

- كلا ، وانما لأنها تنصاع لرغباتها .

- ومن بينها الانفصال عنك .

- أرادت ان تشتغل بالمسرح . هل تفهم الان ؟ .. زوجة مفتش بوليس !

- وهل أصابت نجاحاً ؟

- نعم فهي تغنى .

- فى الأوبرا ؟

- بل فى مسرح الفولى برجير .

- وما أسمها ؟

- أولجا فوبان .

- تلك المغنية التى تقوم بالألعاب البهلونية ؟

- نعم .

عبر جيم بارنيت عن حماسه قائلاً :

- على كل تهانئى يا بيشو فان أولجا فنانة موهوبة . وأغنيتها الاخيرة « ايزيدور يحبنى ولكننى أحب جيم » تدل على فن كبير .

قال بيشو : أشكرك ، لقد جاءتنى هذه البرقية منها ، وهى مؤرخة بتاريخ صباح الامس .

وقرأ : سرقوا غرفة نومى ، وكانوا يقتلون أبى فتمال : أولجا .

قال بارنيت : ان الكلمة « كانوا » هذه تدل على عبقرية !

عاد بيشو يقول : وقد أتصلت تلفونياً بادارة الأمن ، وهم على علم بما

حدث ، وحصلت على الاذن بالانضمام الى زملائى الذين يقومون بتحقيق الحادث .

سأله بارنيت : وماذا تخشى ؟.

أجاب بيشو في لهجة يرثى لها : أخشى أن أراها ثانية !

- أما زلت تحبها ؟

- عندما أرها تسرى الرعشة فى قلبى من جديد ، ويجف حلقى وأتلعثم .. فهل تتصور تحقيقاً فى هذه الظروف ؟ لن أقدم إلا على حماقات .

- في حين انك تريد أن تكون على العكس ، وقورا أمامها ، وأن تكون فوق ذلك على مستوى سمعتك ؟

- تماماً .

- صفوة القول انك تعتمد على ؟

- نعم يا بارنيت .

وما هو سلوك زوجتك ؟

- لا غبار عليه ، لولا تلك النزعة التى تتملكها لبقيت مدام بيشو حتى اليوم .

قال بارنيت فى لهجة الجد وهو يأخذ قبعته :

- وبذلك يخسر الفن خسارة كبيرة .

وبعد بضع لحظات بلغا شارعًا من أهدأ الشوارع وأقلها ازدحاماً ، بالقرب من حديقة لكسمبورج . وكانت أولجا فوبان تقيم فى الطابق الثالث والأخير من بيت جميل ، نوافذ طابقه الأرضى مرتفعة ومزودة بقضبان

حديدية . وقال بيشو :

ـ كلمة أخرى ، وهى أن تكف هذه المرة عن مزاعمك وادعاءاتك التى تعيب تعاوننا .

قال بارنيت : ان ضميرى ..

قاطعه بيشو قائلا : دع ضميرك فى هدوء ، وفكر فى ضميرى أنا ، وفى اللوم والتوبيخ اللذين ألاقيهما منه .

ـ هل تظننى جديراً بأن أسلب من أولجا فوبان شيئا ما

ـ إننى أطلب منك أن لا تسلب شيئاً من أى أحد .

ـ حتى أولئك الذين يستحقون ذلك ؟

ـ دع العداله تتولى عقابهم .

تنهد بارنيت وقال : هذا أمر غريب حقاً . ولكن ما دمت تريد ذلك .

***

كان أحد رجال الشرطة يحرس الباب وآخر يلازم البواب وزوجته فى غرفتها ، وقد هزهما الحادث كثيراً . وعلم بيشو أن مأمور الحى وشرطيين قد خرجوا من البيت ، وأن قاضى التحقيق قد انتهى من تحقيق مبدئى .
وقال يخاطب بارنيت :

ـ يمكننا ان ننتهز الفرصة الآن حيث لا يوجد أحد .

واستطرد يقول وهما يصعدان :

ـ هذا بيت قديم لا يزالون يحتفظون فيه بتقاليد الماضى . فالباب ، يبقى مثلاً مغلق دائما ولا يمكن لأحد أن يدخله إلا بعد أن يقرعه . يقيم فى

الطابق الأول قسيس ، وفى الطابق الثانى قاضى ، وتقوم زوجة البواب بخدمتهما . أما أولجا فتقطن فى الطابق الثالث وتعيش حياة محترمة بين أمها وخادمتها المتقدمين فى السن واللتين أشرفتا على تربيتها .

فتح الباب لهما . وقال بيشو : تقع غرفة أولجا ومخدعها على يمين الرواق، وعلى اليسار غرفتى الأم والخادمتين ، وأمام الرواق ستوديو للرسم تحول الى قاعة للرياضة ، بها عمود مثبت وأرجوحة وحلقات وأدوات كثيرة متفرقة بين المقاعد والأرايكة .

وما أن دخلا تلك القاعة حتى هبط شيء من الفتحة الزجاجية التى يدخل منها نور النهار . وكان ذلك الشيء شاباً وسيماً يغطى رأسه شعر أشقر أشعث ، وتحت بيجامته المشدودة حول جسدة عرف بارنيت أولجا فوبان وصاحت على الفور بلهجة ريفية :

ـ أمي تتمتع بصحة جيدة كما تعلم يا بيشو . وهى نائمة الآن . ان امى العزيزة لمحظوظة حقاً .

وقامت بحركة رياضية فارتكزت برأسها فوق الأرض ، ورفعت قدميها فى الفضاء ، وراحت تغنى بصوت رنان ، مثير ومبحوح « ايزيدور يحبنى ولكننى أحب جيم »

وقالت وهى تنهض : وأحبك أنت أيضا يا عزيزى بيشو . نعم . جميل منك أن أتيت بهذه السرعة .

وقدم بيشو زميله قائلاً .

ـ صديقى ـ جيم بارنيت

وكان يحاول ان يتماسك نفسه ولكن عينيه الزائغتين وحركاته العصبية

كانت تنم عن اضطرابه و بلبلته . وقالت :

ـ حسنٌ . سوف تكشفان معا غموض هذه المسألة ، وتعيدان الى غرفة نومي ، فهذا من اختصاصكما . آه . وأقدم لكما بدوري دل بريجو ، استاذ الرياضة الذليك وفنون المكياج ، وهو في نفس الوقت تاجر منتجات التجميل الذي يحظى بشهرة كبيرة فى عالم المسرح ، والذى لا مثيل له فى إعادة الشباب وتعليم الحركات البهلوانية .. دل بريجو .

انحنى دل بريجو .. كان عريض الكتفين ، نحاسي البشرة ، له وجه بشوش لهرج عجوز ويرتدى ثياباً سمراء، وزوجان من القفازات البيضاء اللون وقماطا أبيض ويمسك في يديه قبعة من الللباد ذات لون فاتح ، وراح يلوح على الفور ويلثغ بالراء، ويمزج باللغة الفرنسية التي يتكلمها بلكنه اجنبيه كلمات أسبانيه وانجليزية وروسية ، وأراد ان يعرض طريقته في تعليم الحركات الرياضية البهلوانية ، ولكن أولجا قاطعته قائله :

ـ لا يجب أن نضيع الوقت . ماهي المعلومات التي تريدها يا بيشو ؟

قال بيشو : دعينا ، قبل كل شيء نرى غرفتك .

ـ حسنًا . فلموا بنا إليها .

ووثبت مرة واحدة وتعلقت بالأرجوحة ، ودفعتها هذه الى الحلقتين وأسرعت بالهبوط منهما أمام باب وقالت :

ـ ها نحن بها .

كانت الغرفة عارية تماما . لا فراش ولا مفروشات ولا ستائر ولا لوحات ولا مرايا ولا سجاد ولا تحف .. ولم يعد فيها شيء على الإطلاق غرفة عارية افرغها اللصوص من كل شيء .

وراحت تقهقه ثم قالت : ما رأيكما ؟ أنهم أخلوها من كل ما كان فيها ، بل انهم أخذوا أدوات التجميل وفرشاة الشعر ، ويخيل الى أنهم اخذوا منها كل ما كان فيها من غبار .. كنت أعتز جدا بغرفتي .. فهي من طراز لويس الخامس عشر .. اشتريت مفروشاتها قطعه قطعة .. الفراش سبق أن رقدت فيه مدام دى بومبادور .. وأربع لوحات لبوشية وطاولة تاريخية .. وروائع .. ابتعتها كلها بنقودى التي ربحتها في جولتي بأمريكا .

وقامت بحركة بهلوانية عنيفة ، شديدة الخطر، ثم هزت شعرها وصاحت فى مرح :

ـ ولكن لا بأس . سأبتاع غيرها . فانا ، بفضل عضلاتي المرنة وصوتي المبحوح ، ولا أعاني من أية ضائقه . ولكن ماذا بك لكي تنظر الى هكذا بابيشو ؟ يخيل إلى دائما انك ستقع عند قدمي مغمى عليك . تعالى لكي أقبلك ثم ألقي على ما تشاء من أسئلة ، ولنفرغ من الأمر قبل قدوم رجال النيابة .

قال بيشو : اذكرى لنا ما حدث .

قالت : ليس هناك الكثير . إليك ما حدث في منتصف الساعة العاشرة مساء أمس .. ويجب أن أقول لك أنني قد خرجت من الساعة الثامنة مع دل بريجو ، فقد رافقني الى الفولي برجير بدلاً من أمي ، لأنها كانت مشغولة في غزل الصوف . دقت الساعة معلنة النصف بعد التاسعة عندما صدرت حركة في غرفتي ، فأسرعت أمي إليها ، وعلى ضوء مصباح كهربي أنطفأ على الفور رأت رجل يفك الفراش ، وآخر انقض فوق رأسها وألقاها أرضاً فى حين أحاط الاول رأسها بمفرش . ثم قام بنقل كل ما فى الغرفة . ولم تتحرك أمي ولم تصرخ حتى سمعت سيارة كبيرة تنطلق في الشارع ثم

أغمي عليها .

قال بيشو : بحيث انك عندما عدت من الفولي بجير ..

- وجدت الباب العمومي للبيت مفتوحاً ، وباب مسكني مفتوحاً هو الآخر، وأمي مغمى عليها ، ولا تسل عن دهشتي عندئذ .

- والبواب وزوجته ؟

- أنت تعرفهما . أنهما متقدمان في السن ، ويقيمان هنا منذ ثلاثين سنة ولا يزعجهما أي زلزال . لا يوقظهما شيء غير جرس الباب . وهما يقسمان أن ما من احد طرق الباب منذ ان أويا الى فراشهما في الساعة العاشرة مساء حتى الثامنة صباحا .

قال بيشو : ونتيجة لذلك لم يرفعا السقاطة التي تفتح الباب .

- هو ذلك .

- والسكان الآخرون ؟

- لم يسمعوا شيئاً هم أيضاً .

- وأنتِ ؟

- وأنتِ ماذا ؟

- أعني ما رأيك في ذلك يا أولجا .

احتدت المرأة الشابة قائلة :

- أن أمرك عجيب . وهل من شأني أن يكون لي رأى ؟ أنك لتبدو حقاً غبيا كرجل النيابة .

قال في ارتباك : ولكننا لم نبدأ بعد .

- ألا يكفيك كل ما ذكرت لك كي تجلو الامر ؟ إذا كان المدعو بارنيت غبياً مثلك فلا أمل في عودة فراشي الذي رقدت عليه مدام دي بومبادور .

تقدم المدعو بارنيت وسألها :

- في أي يوم تريدين عودة فراش مدام بومبادرو ؟

قالت : ماذا تقول ؟

ونظرت في دهشة إلى الرجل المضحك . ولم تكن قد أعارته أي أهتمام، ولكنه عاد يقول في غير كلفه :

- أريد أن أعرف اليوم والساعة التي تريدين فيها عودة فراشك وكل مفروشات غرفتك .

- ولكن ..

- فلنحدد التاريخ .. اليوم يوم الثلاثاء .. هل يوافقك يوم الثلاثاء القادم ؟
نظرت إليه بعينين مستديرتين متسعتين ، وبدت كأنها تختنق .

ما معنى هذا الاقتراح الغريب ؟ أتراه يمزح أم يتبجح . وفجأة انفجرت ضاحكة وقالت :

- هذا رجل مضحك حقًا ! من أين أتيت بصديقك هذا يا بيشو ؟. أسبوع ! لكأن فراشي في جيبه . وهل تظن أنني سأضيع وقتي مع رجلين غبيين مثلكما .

ودفعتهما حتى الرواق وهي تقول :

- هيا أغربا عن وجهي . لا أريد أن أراكما بعد اليوم . فلا أحب ان يهزأ بي أحد . انكما لمازحين غريبين !

وأغلقت باب الاستوديو في عنف . وغمغم بيشو بأسى :

ـ ولكن لم تمر بنا هنا أكثر من عشر دقائق .

فحص بارنيت الرواق في اهتمام كبير وهويلقي بعض الاسئلة على إحدى الخادمتين المتقدمتين في السن . وعندما هبطا السلم ، دخلا غرفة البواب وزوجته ، واستجوبهما هما الآخرين . وعندما خرج وثب الى سيارة أجرة كانت تمر بهما وذكر عنوان مكتبه للسائق في حين وقف بيشو على الرصيف مذهولاً .

وإذا كان لبارنيت أى تأثير على بيشو فقد كان تأثير أولجا عليه اكثر بكثير . ورأى من تلك المقابلة ان بارنيت لم يتخلص من الارتباك إلا بوعد لا يمكن إلا أن يكون نوعا من التهريج .

وتأكد بيشو من ذلك في اليوم التالى ، عندما مضى الى مكتب بارنيت ووجده جالساً يدخن وقدماه فوق مكتبه . وصاح به محنقاً :

ـ اذا كنت تهتم بالامر هكذا فسوف تتخبط تماماً . ورغم أنني بذلت كل جهدى فان رجال النيابة لا يفهمون شيئًا ، ولا أنا على كل حال. اننا متفقون طبعاً في بعض النواحي ، ومثال ذلك انه من المستحيل دخول البيت ولو عن طريق مفتاح مصطنع إذا لم يفتح أحد الباب من الداخل . وحيث انه لا يوجد من يمكن الاشتباه فيه في الداخل ، باشتراكه في الأمر فقد انتهينا الى هذين الاستنتاجين الحتميين ، وأولهما أن أحد اللصوص كان بالداخل في نهار اليوم السابق ، وأنه فتح الباب لشريكه . وثانيهما انه لم يستطع الدخول دون أن يراه البواب وزوجته حيث ان باب البيت يبقى مغلقاً دائما. ولكن من الذى دخل ؟ ومن الذى ساعده على الدخول ؟ سر مستغلق . إنني .

ولكن بارنيت لم يخرج عن صمته . بدا غريبا تماما عن تلك المسألة .

واستطرد بيشو :

ـ وقد وضعوا قائمة بالأشخاص الذين دخلوا بالامس . وأكد البواب وزوجته أن كل شخص دخل في ذلك اليوم خرج ثانية . وإذن فليس هناك أى أثر . والسرقة التى تمت بوسائل بسيطة وبجرأة كبيرة لا تزال سراً مستغلقا . فما رأيك في كل ذلك .

تمطى بارنيت ، وبدا أنه يعود الى عالم الواقع وقال :

ـ أنها جميلة ..

ـ من ؟ ماذا ؟ .. من هى الجميلة ؟

ـ زوجتك .

ـ ايه ؟ .

ـ جميلة في الحياة وعلى المسرح .. نشاط وحيوية .. حيوية مفرطة ! فتاة باريسية حقاً . وهى فوق ذلك رشيقة وفاتنة .. وفكرة انفاقها مدخراتها لشراء فراش بومبادور فكرة طريفة .. انت غير محظوظ . حقاً يا بيشو

غمغم هذا الاخير : هو ذلك . وقد تخلى عنى الحظ منذ وقت طويل

ـ وكم استمر هذا الحظ .

ـ شهر واحد

ـ وأنت تشكو وتتذمر ؟

وعاد بيشو يوم السبت الى المكتب ووجد بارنيت يدخن ويفكر . ولم يرد عليه . وظهر بيشو أخيرا يوم الاثنين وقد ثبطت همته . وقال مزمجراً :

ـ ليس هناك أى أمل . ان كل هؤلاء الناس هناك أغبياء . وفي أثناء ذلك

لابد أن فراش مدام دى بومبادور وغرفة أولجا تهرب الى مكان ما لترسل منه الى الخارج وتباع ذات يوم . وماذا أبدوا انا فى عينى أولجا ؟.. غبى !

ونظر الى بارنيت ، وكان هذا الأخير يتابع بعينيه حلقات الدخان المتصاعد من سيجارته حتى سقف الغرفة فاحتد قائلاً :

ـ وهكذا .. نحن ننازل خصوماً اشداء لم نلتق بمثلهم قبل اليوم .. اناس يتصرفون بطريقة خاصة ، خدعة دقيقة بحيث لا يتركون وراءهم أى أثر . والظاهر الذي لا شك فيه انهم أدخلوا شريكا فى البيت وانت لا تحاول حتي اكتشاف هذه الخدعة .

قال بارنيت : ان فيها شيئا يروقنى أكثر من أى شيء أخر .

قال بيشوا : ماذا ؟

ـ طبيعتها، وتلقائيتها . لا تصنع فيها ولا رياء . ان اولجا تنطق بما يخطر على بالها ، وتتصرف طبقًا لغريزتها ، وتعيش كما يحلو لها . وأعود فاكرر لك يا بيشو أنها أمراة حلوة .

هوى بيشو بقبضته على المكتب بقوة وقال :

ـ هل تعرف رأيها فيك ؟ غبى ! وعندما تتكلم عنك مع دل بريجو يضحكان بملء فيهما .. بارنيت المغفل .. بارنيت المتفاخر !

تنهد بارنيت وقال : هذه صفة بغيضة . ما العمل لكي لا استحقها ؟

ـ ان غداً يوم الثلاثاء . يجب ان نعيد اليها فراش مدام بومبادور كما وعدتها .

ـ سحقاً لك . ولكننى لا أعرف أين يوجد. أما تنصحنى بشيء يا بيشو .

ـ انصحك بأن تقبض على اللصوص ، ستعرف الحقيقة منهم .

قال بارنيت : ليس هذا بالعمل الهين يا بيشو . هل معك أمر بالقبض ؟

ـ نعم

ـ وهل لديك رجال تحت تصرفك ؟

ـ ما على إلا أن أتصل بادارة الأمن بالتليفون .

ـ اتصل الان واطلب ان يبعثوا اليك برجلين قويين بجوار اللوكسمبورج، على مقربة من الاوديون .

أجفل بيشو وقال : هل تسخر منى ؟

ـ ابداً . ولكن هل تظن أننى أريد ان يخطر لاولجا أننى مغفل .. ثم ، أليس من عادتى الوفاء بوعودى دائماً .

فكر بيشو بضع دقائق . أحس فجأة بأن بارنيت يجد فى قوله وانه لم يكف عن التفكير فى اللغز طوال الايام الستة وهو جالس فى مقعده . ألم يسبق ان قال مراراً أن هناك حالات من الأرفق قتلها تفكيراً وتمحيصاً بدلاً من إضاعة الوقت فى تحقيق لا طائل منه .

ومن غير أن يطيل التفكير، اتصل بصديق له يدعى ألبير ، فى إدارة الأمن ، وهو فى نفس الوقت المساعد الأمين لرئيس الأمن . وتم الاتفاق على إرسال رجلين بجوار مسرح الاوديون .

ونهض بارنيت متأهبا للخروج . وكانت الساعة قد بلغت الثالثة ، وخرجا . وسأله بيشو :

ـ هل تذهب الى الحى الذى تقيم فيه أولجا .

- بل الى بيتها بالذات .

- ولكننا لن نمضى الى مسكنها ؟

- بل الى غرفة البواب وزوجته .

والواقع انهما جلسا فى غرفه البواب ، بعد أن أوصى بارنيت البواب وزوجته ان لا ينطقا بكلمة واحده وأن لا يفعلا ما ينم على وجوده و بيشو فى الغرفة . جلسا خلف ستار. وكان فى مقدور كل منهما أن يرى كل من يدخل وكل من يخرج .

خرج القسيس الذى يقطن بالطابق الأول ، ثم خرجت إحدى خادمتى أولجا وفى يدها سلة لابتياع بعض لوازم البيت . وتمتم بيشو :

- من الذى ننتظره بحق الشيطان ؟ .. وما هو هدفك ؟

- هدفى أن أعلمك مهنتك .

- ولكن ؟

- اسكت ..

دخل دل بريجو فى الساعة الثالثة والنصف وهو يرتدى قفازه الابيض وقماطه الأبيض هو الاخر، وبدله سمراء فاتحة اللون . وأشار الى البواب وزوجته محيياً . كانت ساعة بدء الدروس الرياضية اليومية .

وبعد أربعين دقيقة خرج من جديد ومعه علبة من السجائر ابتاعها .. قفاز أبيض وطباق أبيض .

ثم دخل ثلاثة أشخاص أخرون .. وهمس بيشو فجأة :

- أظنه خرج من الباب .

قال بيشو فى شىء من التردد : لا أظن . إلا اذا كنا لم نرقب الباب جيداً. ما رأيك يا بارنيت ؟

أبعد بارنيت الستار وقال : أرى ان وقت العمل قد حان .. امض وابحث عن رجليك يا بيشو .

- هل اتى بهما هنا ؟

- نعم .

- وأنت ؟

- سأصعد .

- هل تنتظرنى ؟

- لماذا ؟

- ولكن ماذا هناك ؟

- سوف ترى . رابطو ثلاثتكم فى الطابق الثانى . وسوف أدعوكم .

- سوف تبدأ العمل إذن ؟

- حتى النهاية .

- ضد من ؟

- ضد رجال لا تنقصهم الجرأة .. أسرع

أسرع بيشو بالخروج .. وصعد بارنيت الطوابق الثلاثة كما قال . وطرق الباب ودخل الى غرفة الرياضة حيث كانت أولجا تنتهى من دروسها تحت

مراقبه دل بريجو . وصاحت وهى فوق سلم من الحبال :

- أه .. من أرى .. مسيو بارنيت العنيد. حسنا يا مسيو بارنيت . هل تأتيني بفراشي ؟

- تقريباً يا سيدتي . ولكن أرجو ان لا يزعجك حضوري .

- بل على العكس .

وبخفة عجيبة ودون ان تحفل بالخطر قامت ببضع حركات صعبة تلبية لارشادات دل بريجو . وكان هذا الأخير يشجعها وينتقدها ويعطيها المثل أحيانا . فقد كان هو نفسه رياضياً قديراً ، وان كان اكثر عنفا . وكان يبدو انه يريد أن يظهر براعته .

واذا انتهى الدرس لبس سترته وزرر طماقة الابيض ، وأخذ قفازه الابيض ، وقبعته الفاتحه اللون ، وقال :

- سوف نلتقي هذا المساء في المسرح يا مدام أولجا .

- الن تنتظرني اليوم اذن يادل بريجو ؟.. كان يجب أن ترافقني لأن أمي غير موجودة .

- لا يمكنني ذلك ، فلدى دروس قبل العشاء .

ومضى نحو الباب ، ولكنه اضطر ان يتوقف ، فقد كان بارنيت بين الباب وبينه . وقال بارنيت :

- اسمح لي ببضع كلمات فحسب أيها السيد العزيز ، مادام الحظ قد أسعدني بلقائك .

- أنا اسف حقاً ، فانني ..

- هل يجب أن أقدم نفسي ثانية . انا جيم بارنيت ، مخبر خاص بمكتب بارنيت وشركاه ، وصديق لبيشو .

تقدم دل بريجو خطوة الى الأمام و هو يقول :

- أرجو المعذرة أيها السيد ، فانني على عجل من أمرى .

- أوه . دقيقة واحدة لا أكثر ريثما تستعيد ذكرياتك .

- بخصوص من ؟

- بخصوص رجل تركى .

- تركى ؟

- نعم ، ويدعى بن فالي .

هز الاستاذ رأسه وقال :

- بن فالي ؟ .. لم أسمع عن هذا الاسم ابداً .

- وربما سمعت عن رجل يدعى أفيروف ؟

- لم أسمع عنه هو الاخر .. من هذان السيدان .

- قاتلان .

ساد صمت قصير ثم ضحك دل بريجو وقال :

- هذا نوع من الرجال لا أحب الاختلاط به .

قال بارنيت : بل يزعم بعضهم انك تعرفهما حق المعرفة .

نظر دل بريجو إليه من قمة رأسه الى اخمص قدمه وغمغم :

- ما معنى كل هذا ؟ وضح ما تقول ، فان الألغاز لا تروق لي .

- اجلس يا مسيو دل بريجو .. سوف نتكلم بحرية أكثر .

اتى دل بريجو بحركة تدل على نفاذ صبره . وكانت أولجا قد اقتربت من الرجلين .. جميلة وفضولية وصغيرة جدا في ثوبها الرياضي . وقالت :

- اجلس يا دل بريجو . ولا تنسى أن الامر يتعلق بفراش مدام دي بومبادور .

قال بارنيت : صدقني يا مسيو دل بريجو أنني لا أقدم لك أي لغز . ولكن منذ زيارتي الأولى هنا ، بعد السرقة ، لم أكف عن تذكر حقيقتين مختلفتين كثر الحديث عنهما في حينهما ، وأحب أن أعرف رأيك فيهما . وتكفيني بضع دقائق .

ولم يعد بارنيت يتكلم بطريقته العادية كتابع لبيشو ، وإنما اتخذت لهجته سمة آمره بحيث لا يمكن إلا الخضوع لها . ودهشت اولجا كل الدهشة واضطر دل بريجو ان يذعن وقال مزمجراً :

- أسرع اذن .

وبدأ بارنيت حديثه فقال :

- منذ ثلاث سنوات ارتبط جوهرى يقيم في مسكنه مع أبيه في الطابق العلوى بمبنى في قلب باريس ، بعلاقة عمل مع رجل يدعى بن فالي ، يرتدى عمامة وزياً تركيا بسروال فضفاض ، ويتاجر في الاحجار الكريمة من الدرجة الثانية .. ياقوت أصفر شرقى ولؤلؤ غير متناسق وأحجار نفيسه وغيرها . ومساء يوم صعد بن فالي مرارا الى سكن الجوهرى . وعاد هذا الأخير من المسرح ووجد أباه قتيلاً بطعنه خنجر وخزانات المجواهرات فارغة تماماً . وأسفر التحقيق عن ان الجريمة لم يرتكبها بن فالي بنفسه . لأنه

أثبت أنه كان في مكان آخر وقت ارتكاب الجريمة . ولكن ارتكبها شخص آخر ادخله بن فالي البيت بعد الظهر . وقد تعذر القبض على ذلك الرجل . واختفي التركى بدوره . وحفظت القضية . فهل تتذكرها يا مسيو دل بريجو ؟

قال دل بريجو : لم آت الى باريس إلا منذ سنتين .. ثم أنني لا أرى الصلة .

استطرد جيم بارنيت يقول : وكانت جريمة أخرى قد ارتكبت بنفس الاسلوب . والقتيل من هواة الاوسمة ويدعى مسيو دافول . وأدخل القاتل رجل روسي يدعى الكونت أفيروف ، وأخفاه في المسكن .

قالت أولجا فوبان وقد امتقع وجهها جدا : انني اتذكر هذه الجريمة .

واستأنف بارنيت حديثة قائلاً : وعلى الفور لم أر في هاتين الجريمتين وسرقة فراش مدام بومبادور تماثلاً عجيبا فحسب وإنما مشابهه شبه عائلية بالذات فان سرقة مجوهرات مسيو سورو التي ارتكبها بن فالي وسرقة اوسمة مسيو دانول تمتا بواسطة رجلين أجنبين ، بنفس الطريقة التى نجدها هنا ، أي بادخال مسبق لشريك أو شريكين للقيام بالسرقة . ولكن ما هى السمة المميزة لهذه الطريقة ؟ هذا ما لم أره لأول وهلة . وهذا ما أرهقت نفسى في التفكير فيه طوال أيام في مكتبى . وبهذين العنصرين اللذين عرفتهما وهما جريمة بن فالي وجريمة افيروف ، كان لابد من إثبات فكرة عامة قوامها طريقة خاصة دبرت بها هاتان الجريمتان وربما جرائم أخرى لا أعرفها .

سألته أولجا في اهتمام : وهل أفلحت ؟

أجاب بارنيت : نعم ، وأعترف انها فكرة جميلة . فيها فن ، وأنا خبير في

كل ما يمت بالفن .. فن كبيرحقاً . فبينما يتصرف رعاع اللصوص والقتلة سراً ويتسللون الى الأماكن المراد سرقتها خفية أو يرسلون مسبقاً بعض السباكين أو العمال للتعرف على تلك الاماكن ، يعمد هؤلاء الى طريقة أخرى ويعملون جهاراً وهم رافعوا الرؤوس . وكلما وقعت عليهم الأبصار كلما كان ذلك أفضل ، فهم يدخلون البيت علانية بعد أن يصبحوا من المألوفين والمترددين عليه . ثم . وفي اليوم المحدد يخرجون ، ثم يعودون من جديد ، وثم .. وعندما يصبح رئيس العصابة في الداخل فان رجلاً آخر يدخل .. رجل غير الذي رآوه يدخل ويخرج ، ولكن له نفس مظهره وهيئته بحيث يخطر لمن يراه انه هو . أليس هذا بديعاً .

خاطب بارنيت دل بريجو بهذه العبارة الأخيرة ، ثم استطرد:

- هذه عبقرية .. نعم ، عبقرية يا دل بريجو . أعود فاقول ان رجلاً آخر يقوم بالعملية وهو يحاول ان لا يفطن إليه أحد . كلص الفنادق ، مرتدياً نفس الزى المحايد ، وبنفس الطريقة التي لا تستلفت الأنظار ، رغم حرصهم على أن يراهم الجميع . فاذا دخل روسي يرتدي زياً معيناً ، واذا دخل تركي يرتدي هو الآخر زياً معيناً فلن يخطر لأحد أنه دخلا اكثر مما خرج . ولكن هي الطريقة ، وانني أحيي الذي ابتكرها ونفذها ، لانها تدل على عبقرية واستاذية ، ولكن بالنسبة لي أنا فان بن فالي والكونت أفيروف ما هما الا شخص واحد . أو ليس عندنا الحق عندئذ فيما ان نتساءل من الذي دخل ثالث مرة تحت مظهر ثالث في القضية التي تشغلنا . روسي أولا ثم تركي ثانياً ، ثم .. من الذي نراه هنا في صورة أجنبي ويرتدي بتلك الصورة المميزة ؟

وأمسك ، وأرتسم السخط على أولجا . فقد ادركت على الفور ما يعنيه بارنيت منذ أن بدأ حديثه واحتجت قائلة :

- كلا ، كلا . أن في حديثك هذا تلميحاً لا يمكن إلا ان يثير حنقي .

ابتسم دل بريجو و قال متسامحاً :

- دعيه يتكلم يا مدام أولجا .. أن مسيو بارنيت يحلو له أن يلهو .

قال بارنيت : هو ذلك يا دل بريجو . انني ألهو ، وأنت على حق تماما في أن تهتم بمغامرتي الأخيرة ، على الأقل قبل أن تعرف نهايتها . طبعا ، انا أعلم تماماً انك أجنبي ، وترتدي ثيابك بطريقة تلفت النظر .. قفاز أبيض وطماق ابيض . ووجهك عبارة عن قناع متحرك يصلح لكل تغييرات ويساعدك أكثر من أي شيء آخر على أن تتبدل الى روسي أو تركي أو غني يعيش عيشة بذخ ، ولا يعرف له مورد رزق . وأنت بالطبع من المترددين على البيت ، أيمكنك الدخول والخروج عدة مرات في اليوم . ثم ان سمعتك كرجل شريف لا يمكن الطعن فيها ، وأولجا فوبان ضامنه لك ، ولهذا لامجال ابداً لاتهامك . ولكن ما العمل ؟ هل تفهم ارتباكي ؟ كنت أنت المجرم الوحيد الممكن ، ولكن لا يمكن أن تكون الجاني . أليس كذلك يا أولجا فوبان ؟

قالت وعيناها تلمعان من الحمى والقلق :

- كلا . كلا . اذن من تتهم ؟ .. وأية طريقة تستخدم .

- طريقة بسيطة جدا .

- وما هي ؟

- هي انني نصبت فخاً .

- نصبت فخاً ؟ .. وكيف ذلك ؟

سألها جيم بارنيت الم تتلقى مساء أمس مكالمة تليفونية من البارون لورنز ؟

ـ نعم . هذا صحيح .

ـ وقد جاء لزيارتك أمس ؟

ـ نعم ، نعم ..

ـ وجاءك بصندوق ثقيل من الفضة عليه شعار مدام بومبادور .

ـ ها هو ، على هذه المنضدة .

ـ ان البارون لورينز قد أفلس ويحاول أن يبيع هذا الصندوق الذى ورثه عن اجداده ، وتركه لديك حتى غدا الثلاثاء .

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ البارون هو أنا . والآن فقد عرضت هذه التحفة من الفضيات على من حولك ؟

ـ نعم .

ـ ومن ناحية أخرى تلقت أمك برقية من الريف تدعوها للذهاب الى أختها المريضة ؟

ـ من أخبرك بذلك ؟

ـ أنا الذى أرسلت البرقية . رحلت أمك صباح اليوم اذن ؟ وسيبقى صندوق الفضيات في هذه الغرفة حتى صباح الغد ، وهذا أغراء كبير لكى يقوم بالمحاولة ويسرق الصندوق . وفى سرقة قيمتها اكثر بكثير من قيمة الغرفة ومحتوياتها .

وهل ستتم المحاولة هذه
استولى ال وف فجأة على أولجا وصاحت :
الليلة ؟

ـ هذه الليلة كما هو مفروض .

قالت فى صوت متهدج : ولكن هذا فظيع .

وكان دل بريجو قد أصغى دون ان يتحرك فنهض وقال

ـ ليس فى هذا أى شئ فظيع يا مدام أولجا مادمت قد عرفت . يكفى أن تبلغى البوليس . واذا سمحت فانني سأنصرف الآن .

صاح بارنيت : كلا بالطبع . فانني بحاجة إليك يا دل بريجو .

ـ لا أرى فيم أستطيع أن أفيدك .

ـ كيف ذلك ؟ .. ولكن فى القبض على الشريك .

ـ أمامنا الوقت . ما دامت السرقة لن تقع الا ليلا .

ـ نعم . ولكن لا تنسى ان الشريك قد تم ادخاله مسبقا .

ـ أيكون قد دخل فعلا ؟

ـ منذ نصف ساعة .

ـ هذا سخف . أتعنى منذ حضورى ؟

ـ منذ قدومك المرة الثانية .

ـ هذا أمر لا يصدق .

ـ رأيته يدخل كما رأيتك أنت .

ـ اذن فهو مختبئ فى هذا المسكن ؟

- نعم .

- أين ؟

مد بارنيت اصبعه نحو الباب وقال :

- هناك يوجد في الرواق دولاب مشحون بالثياب والملابس القديمة ولا يفتحه أحد بعد الظهر ، وهو مختبئ فيه .

- ولكنه لم يستطيع ان يختبئ فيه بمفرده ؟

- كلا .

- ومن الذى فتح له ؟

- أنت يا دل بريجو .

كان من الواضح بالطبع ، منذ البداية ، أن كل كلمات بارنيت تشير الى استاذ الرياضة ، وانها كلها الماحات محددة بالذات ، ومع ذلك فان مفاجأة الهجوم أفزعت دل بريجو، وارتسمت على وجهه شتى المشاعر التى تتضارب فيه ، والتى استطاع اخفاءها حتى الان ، وهى الغضب والقلق وخمن بارنيت تردده وأسرع الى الرواق وأخرج من الدولاب رجلاً دفعه الى الاستوديو . وصاحت أولجا :

- آه .. الأمر صحيح إذن .

كان الرجل له نفس قامة دل بريجو ، ومرتديا مثل ثيابه تماماً ، ونفس الوجه السمين القابل للتغير، وقال بارنيت وهو يضع على رأسه قبعة فاتحة اللون ويناوله قفازا أبيض :

- أنك نسيت قبعتك وقفازك أيها السيد .

دهشت أولجا وراحت تبتعد خطوة خطوة دون أن تفارق بعينيها الرجلين، وصعدت درجات السلم متقهقرة ، أدركت فجأة حقيقة دل بريجو ، والاخطار التى تعرضت لها بجواره ، وخاطبها بارنيت وهو يضحك :

- عجبا ، هذا غريب ! انهما ليسا متشابهين كتوأمين .. ولكنهما متشابهان فى القامة والهيئة ولكل منهما وجه بهلوان عجوز ، وزيهما متشابه هو الاخر ، انهما يبدوان كأخوين تماماً .

تغلب الشريكان على اضطرابهما شيئاً فشيئاً ، كانا قويين وأمامهما على كل حال غريم واحد يبدو ضعيفا ، وله مظهر موظف بسيط . ونطق دل بريجو بعبارة أجنبيه فقال بارنيت على الفور:

- لا داعى للتحدث باللغة الروسية لكى تسأل زميلك إن كان معه مسدس .

تميز دل بريجو من الغيظ وقال بضع كلمات بلغة أخرى فقال بارنيت :

- لاحظ لك فاننى أعرف التركية معرفة تامة ، ثم أننى أحب أن تعرف ان بيشو موجود فى السلم وأنت تعرفه ، فهو زوج أولجا ، ومعه اثنان من رجاله، وبمجرد سماعهم طلقة سيبادرون بالهجوم .

تبادل دل بريجو وزميله نظرة ، أحسا بأنهما هالكين ، ومع ذلك فقد كانا من النوع الذى لا يقر بالهزيمة ، فاقتربا من بارنيت وهما متأكدان من قوتهما ، ولكن بارنيت صاح بهما :

- حسنا ، معركة ضارية بالايدى ، وما أن تتغلبا على حتى تحاولا الهرب من بيشو ، حذار يا مدام أولجا ، ستشهدين الان شيئا عجبا عملاقان ينقضان على رجل نحيل ، هيا يا دل بريجو .. بأسرع من هذا .. هيا، قليل

من الشجاعة .. أمسك بتلابيبي .

كانت تفصل بينهم ثلاث خطوات . وشدد الشقيقان الضغط على أصابعهما وما هي إلا لحظة حتى أنقضا . ولكن بارنيت كان أسبق منهما، فقد خفض رأسه نحو الارض وأمسك بساقي كل منهما وأوقعهما أرضاً كما لو كانا تمثالين . وقبل ان يتمكنا من الدفاع عن نفسيهما أحسا بأن رأسيهما سمرتهما يد بدت لهما قوية كما لو كانت كلابه حديد . واختنقا وتخاذلت سواعدهما ولم يستطيعا حراكا . وقال بارنيت في هدوء عجيب :

ـ أولجا فوبان .. تكرمي بفتح الباب واستدعاء بيشو .

وثبت اولجا من السلم واسرعت نحو الباب بقدر ما سمحت لها قوتها المتخاذلة وصاحت : بيشو .. بيشو ..

وعادت مع المفتش وكلها حماس وخوف في نفس الوقت . وقالت :

ـ قضي الأمر . انه شك في حركتهما وحده . ما كنت أتوقع هذا منه ابداً .

وقال بارنيت يخاطب بيشو :

ـ هاك زبوناك . ما عليك إلا أن تضع الاصفاد في أيديهما حتى اتركهما يتنفسان المسكينين . كلا . لا تقسوا عليهما يا بيشو . اؤكد لك أنهما سيلزمان الهدوء . أليس كذلك يا دل بريجو ؟ ..

ونهض . وقبل يد أولجا التي راحت تتأمله باعجاب ثم صاح في مرح :

ـ آه يا بيشو .. انه لصيد جميل .. وحشان من أكبر الوحوش الضارية . واشدهما خبثاً ومكراً .. لك كل تهانئي يا دل بريجو للطريقة التي ابتكرتها .

وراح يغرز أصابعه المتوترة في صدر الأستاذ . وكان بيشو يمسكه

جيدا من قيده . واستطرد يقول في مرح متزايد

ـ أقول أنها عبقرية . منذ لحظات . عندما كنت مختبئاً في غرفة البواب ، حيث كنت اقوم بالمراقبه انا وبيشو ، وكنت قد عرفت خدعتك ، رأيت ان الذي دخل آخر مرة لم يكن انت . ولكن بيشو، بعد لحظة من الشك وقع في الفخ واعتقد ان ذلك السيد ذا القفاز الأبيض والطماق الابيض والقبعة الفاتحة اللون والبدلة السمراء، هو دل بريجوا الذي رآه يمر أكثر من مره ، الأمر الذي سمح لدى بريجو رقم ٢ ان يصعد بهدوء ، وأن يتسلل داخل الدولاب ، تماماً كما فعلها في الليلة التي اختفت فيها غرفة النوم في جوف الظلام . وتجرؤ فتقول ان هذه ليست عبقرية .

كان من الواضح ان بارنيت لم يعد يستطيع السيطرة على فرحته الغامرة . ووثب وثبة كبيرة ألقى نفسه بعدها فوق الأرجوحة ، وانتقل منها الى عمود ثابت وراح يدور حوله ثم أمسك بالحبل ووثب منه الى الحلقات ، الواحدة بعد الأخرى ثم بالسلم ، كل ذلك في حركات أشبه بحركات قرد في القفص ، ولم يكن هناك أغرب ولا أعجب من أطراف معطفه الطويل التي كانت تتطاير وتدور خلفه بطريقة مثيرة مضحكة .

ووجدته أولجا وهي لا تزال في أوج اضطرابها أمامها فجأة ،

وقال :

ـ ضعي يدك على قلبي ايتها السيدة الجميلة . إن النبض عادي تماما ، أليس كذلك ؟ .. ورأسي ؟ .. ولا قطرة عرق .

وأمسك بسماعة التليفون وطلب رقماً وقال :

ـ إدارة الامن ؟ .. قسم الابحاث اذا سمحت .. آه .. هذا أنت يا ألبير ؟

انا بيشو .. ألا تعرف صوتي ؟ .. هذا لا يهم . أبلغ الادارة بأن المفتش بيشو ألقى القبض على قاتلين دبرا سرقة مسكن اولجا فوبان .

ومد يده نحو بيشو وقال : كل المجد لك أنت يا صديقي العزيز ..

انني أحييك يا سيدتي .. أراك تتطلع الى بيرود يا دل بريجو .

غمغم دل بريجو : اظن أنه لا يوجد غير رجل واحد جدير بأن يخدعني هكذا ..

- ومن هو ؟

- أرسين لوبين .

صاح بارنيت : أخيراً ! هذا تحليل رائع يادل بريجو ، وسوف تذهب بعيداً اذا لم تفقد رأسك . ولكنها ليست مشاكسه فوق كتفيك .

وانفجر ضاحكا ، وحيا أولجا ، وخرج وهو يغني : ايزيدور يحبني ولكنني أحب جيم .

وفي اليوم التالي ضيق المحققون على دل بريجو وأرهقوه بالادلة بحيث اضطر أن يعترف بأن المسروقات مخبؤة في حظيرة في الضواحي . وكان اليوم يوم الثلاثاء ، وهكذا بر بارنيت بوعده .

واضطر بيشو الى السفر في الأرياف لقضاء بضعة أيام في مهمة رسمية وعندما عاد وجد رساله من بارنيت هذا نصها :

« اعترف إنني كنت كريماً . فانا لم أجن مليماً واحداً في هذه القضية ، ولم اقتطع شيئاً لنفسي كما تخشى ومن ناحية اخرى فان خير جزاء لي أن أحتفظ باحترامك وتقديرك .

وبعد ظهر اليوم مضى بيشو الى مكتب بارنيت وفي نيته أن يقطع علاقته به ، ولكنه وجد المكتب مغلقاً وعليه هذه اللافتة

مغلق بسبب الحب

سيفتح من جديد بعد شهر العسل

وزمجر قائلاً وهو يشعر ببعض القلق : ما معنى هذا بحق الشيطان !

وأسرع إلى أولجا فوجد المسكن مغلقاً هو الآخر ، وهرع إلى الفولي بيرجير فقيل له أن الفنانة الكبيرة دفعت تعويضاً كبيراً وفسخت عقدها ورحلت في أجازة ، وخرج إلى الشارع وهو يغمغم :

- يا الشياطين ! أيمكن هذا ؟ .. بدلاً من أن يقتطع لنفسه نقوداً انتهز انتصاره وسمح لنفسه با غراء ..

شئ فظيع ، ويأس لا مثيل له . ولكن كيف يعرف ، أو بالأحرى ، كيف يتصرف لكي لا يعرف ولا يحصل على يقين يخشاه أكثر من أي شيء .

ولكن مما يؤسف له أن بارنيت لم يرحم فريسته ، فقد تلقى بيشو مراراً كثيرة بطاقات بريدية مصورة وعلى كل منها عبارة كلها حماس جنوني :

« آه يا بيشو ! ... يا لضوء القمر في روما ! ... إذا حدث وأحببت يا بيشو فاذهب إلى صقلية .

وكان بيشو يصر على أسنانه ويقول : أيها الوغد . أنني غفرت لك كل شيء إلا هذا ، فلن أغفره لك أبداً . وسوف أنتقم سريعاً .

***

٢ القبض على جيم بازيت

دخل بيشو إدارة الأمن ، واجتاز ممرات وارتقى سلالم ، وفتح باباً من غير أن يطرقه واندفع نحو رئيسه المباشر ، وقال وقد انقلبت سحنته من فرط الانفعال :

ـ أن جيم بارنيت ضالع في قضية ديروك ، رأيته أمام بيت النائب ديروك بعيني هاتين .

ـ جيم بارنيت ؟

ـ نعم . المخبر السرى الذى كلمتك عنه مراراً أيها الرئيس والذى اختفى منذ بضعة أسابيع .

ـ مع الراقصة أولجا ؟

صاح بيشو وقد تملكه الغضب : نعم ، زوجتي السابقة !

ـ وبعد .

ـ انني تعقبته .

ـ دون أن يدرى ؟

ـ أوه . لا يمكن لمن أتعقبه أن يشعر بذلك أبداً . ومع ذلك فقد كان ذلك الشقى يتخذ احتياطاته ويتظاهر بأنه يتسكع . دار بميدان الانوال ، وسلك شارع كلير ، وتوقف فى ميدان تروكا ديرو ، بجوار امرأة جالسة فوق دكة. امرأة يبدو أنها من الغجر ، جميلة وغريبة الأطوار بشالها الملون وشعرها الأسود المشط على هيئة برنيطة . وبعد دقيقة أو دقيقتين تبادلا الحديث همساً وهما يشيران ببصرهما أكثر من مرة إلى بيت واقع على ناصيتى شارع كلير والميدان . ثم نهض واستقل المترو .

ـ وأنت تتعقبه دائماً ؟

ـ نعم . ولكن مر ترام على الخط المقابل لسوء الحظ فلم أجد الوقت لكى أستقل المترو بدورى . وعندما عدت إلى الميدان كانت الغجرية قد اختفت .

ـ ولكن ذلك المنزل الذى أشارا إليه .. هل مضيت إليه ؟

ـ انني أتيت منه الآن يا سيدى الرئيس .

وراح بيشو يتكلم وهو يشدد الضغط على كلماته فى زهو كبير

ـ يقيم فى الطابق الرابع من ذلك البيت ، منذ أربعة أسابيع ، والد المتهم الجنرال ديروك ، وهو ضابط متقاعد ، أقبل من الريف ، كما تعرف ، لكى يدافع عن ابنه المتهم بالاختطاف والتعذيب والقتل .

وكان لقوله تأثيره وعاد الرئيس يقول

ـ وهل رأيت الجنرال ؟

ـ أنه فتح لى الباب بنفسه ، وعلى الفور حدثته بالمشهد الصغير الذى رأيته . ولم تأخذه الدهشة . ففى اليوم السابق ، زارته امرأة بوهيمية ، وعرضت عليه خدماتها فى التنجيم والتنبؤ بالورق، وطلبت ثلاثة آلاف فرنك

وهي تنتظر رده اليوم في ميدان التروكا ديرو ، فيما بين الساعة الثانية والثالثة ، وستصعد إليه عند أول إشارة منه .

- وماذا تعرض عليه ؟

- قالت له أنها ستعثر على الصورة الشهيرة وتأتيه بها .

هتف الرئيس : الصورة التي نبحث عنها عبثاً ؟

- هي بالذات ، تلك التي ستنقذ النائب ديروك أو تدينه طبقاً لوجهتي نظر الاتهام والدفاع .

تلى ذلك صمت طويل ثم تمتم الرئيس كما لو يبوح بسر :

- أنت تعرف يا بيشو مدى إهتمامنا بالحصول على هذه الصورة .

- أعرف ذلك .

- لا يكفي أن تعرف ولكن يجب .. هل تسمع يا بيشو .. يجب أن تقع هذه الصورة بين أيدينا قبل أن تحصل عليها النيابة .

وأردف يقول في صوت أشد خفوتاً :

- البوليس أولاً .

أجاب بيشو في نفس اللهجة الخطيرة :

- ستحصل عليها أيها الرئيس ، وسأسلمك البوليس السري بارنيت في نفس الوقت .

***

قبل ذلك بشهر انتظر المالي فيرالدي ، أحد ملوك باريس ، بفضل ثروته وعلاقاته السياسية ، وجسارته ، ونجاح مشروعاته ، انتظر زوجته في

ساعة الغداء ، ولكنها لم تكن قد عادت بعد عندما هبط الليل ، ولم يرها أحد طوال الليل . وقام البوليس بأبحاثه وتحرياته ، وثبت بالدليل القاطع أن كريستيان فيرالدي تخرج كل صباح من بيتها الكائن على مقربة من غابة بولونيا وتتنزه في الغابة ، وأن رجلاً اقترب منها في ممر مقفر وجرها إلى سيارة مغلقة وانطلق بها مسرعاً ناحية السين . ولم يتبين أحد ملامح الرجل ولكن بدا أنه شاب ، وكان يرتدي معطفاً سميكًا أزرق اللون ، ويضع على رأسه قبعة سوداء ، ولم يعرف عنه أحد شيئاً آخر .

وانقضى يومان ولم يسمع أحد عنها شيئاً .

ثم كانت المفاجأة ، فبعد ظهر أحد الأيام رأى بعض الرجال الذين يشتغلون على مقربة من شارع شارتر بباريس سيارة تنطلق بسرعة كبيرة ، ارتفعت فيها صيحات فجأة ، ثم شاهدوا أحد أبوابها يفتح وامرأة تلقى منه في الفضاء .

وأسرعوا إليها على الفور .

وفي نفس الوقت صعدت السيارة فوق منحدر واندفعت بسرعة واصطدمت بشجرة وانقلبت ، وخرج منها رجل سليم لم يصب بشيء ، وعاد يجري نحو المرأة .

كانت قد ماتت ، فقد اصطدمت رأسها بكتلة من الحجر .

ونقلت إلى قرية قريبة وأبلغوا المخفر . ولم يتردد الرجل في ذكر اسمه وقال أنه النائب ديروك ، العضو المشهور بمجلس النواب ، وزعيم حزب المعارضة . أما لمرأة القتيل فقد كانت هي مدام فيرالدي .

وبدأت المعركة على الفور ، عنيفة وشرسة ، من ناحية الزوج ، ولم تكن

بأقل عنف وشراسة من ناحية النيابة ، وقد أثارها بعض الوزراء الذين يهمهم ضياع النائب ديروك . لم يكن هناك أى شك فى حادث الاختطاف حيث أن جان ديروك كان يرتدى ثياباً زرقاء اللون وقبعة سوداء تماماً كالرجل الذى هاجم كرستيان فاليرى . أما عن القتل ، فقد كانت شهادة الفلاحين قاطعة ، فقد رأوا ذراع الرجل وهو يدفع المرأة ، ويلقى بها إلى الخارج . وطلبت النيابة رفع الحصانة البرلمانية عنه .

وتصرف جان ديروك تصرفاً زاد الاتهام ضده قوة ، فقد اعترف دون لف أو دوران بالاختطاف ، ولكنه كذب شهادة الفلاحين بكل قوة ، وقال أن مدام فيرالدى وثبت من العربة بنفسها ، وأنه بذل المستحيل لكى يمنعها من ذلك .

أما عن أسباب الانتحار ، وعن ظروف الاختطاف ، وعما حدث أثناء اليومين اللذى غابت فيهما ، وعن المناطق المرتادة ، والتطورات التى سبقت النهاية المأساوية فقد لزم الصمت التام . ولم يستطع المحققون إثبات أين ومتى عرف مدام فيرالدى ، أو إذا كانت هى قد عرفته بما أن مسيو فيرالدى، المالى المعروف ، قال أنه لم يسبق له أن تعرف به .

وعندما ضيقوا عليه بالأسئلة أجاب :

- ليس لدى ما أقوله أكثر من ذلك ، ولكم أن تعتقدوا ما تشاءون ، وأن تفعلوا ما يروق لكم فلن أقول شيئاً مهما حدث .

ولم يحضر جلسة مجلس النواب .

وفى اليوم التالى ، عندما دق رجال البوليس على بابه ، وبينهم بيشو ، فتح لهم بنفسه وقال : أننى لى استعداد لأن أتبعكم أيها السادة .

وقاموا بتفتيش دقيق ، ووجدوا فى المدفأة ، بغرفة المكتبة رماداً عرفوا منه

أنه أحرق أوراقاً كثيراً ، وبحثوا فى الأدراج ، وأفرغوا المنقولات ، وتصفحوا الكتب ، وحزموا رزماً من الأوراق من والمستندات .

وكان جان ديروك يتابع فى غير اكتراث ذلك التفتيش العجيب . ووقع حادث واحد كان له تأثيره الشديد والعنيف ، فقد أبدى بيشو ذكاء أكثر من زملائه وعثر فى علبه بها بعض الأوراق على لفافة رفيعة من الورق لم يفطن إليها أحد ، وهم يفحصها عندما هجم عليه جان ديروك وانتزعها من يده وهو يقول : أنت ترى تماماً أنه لا أهمية لها .. أنها صورة .. صورة قديمة انفصلت عن ورقتها الكرتون .

وكان أن تصرف بيشو بكل عنف وقوة ازاء اضطراب ديروك ، وغرابة العمل الذى اقدم عليه . وأراد أن يسترد اللفافة ، ولكن النائب خرج وهو يجرى ، وأغلق الباب خلفه ، وأسرع إلى الغرفة المجاورة حيث يقوم بحراستها أحد حراس الأمن . ولحق به بيشو وزملاؤه على الفور . ودارت بينهم مناقشة حادة ، وفتشوا جيوب جان ديروك ، ولكن لفافة الورق التى تضم الصورة لم تكن معه . واستجوبوا الحارس ، فقال أنه اعترض طريق الهارب . أما عن المستند الذى يبحثون عنه فانه لم ير شيئاً . وألقى القبض على النائب واقتيد إلى السجن .

هذه هى المأساة فى خطوطها الرئيسية ، وقد أثارت ضجة كبيرة فى حينها (وكان ذلك قبل الحرب العالمية بقليل) بحيث أنه لا داعى لأن تذكر تفاصيلها التى لا يجهلها أحد ، ولا مراحل التحقيق التى لم تسفر عن شىء ، ولولا تدخل بيشو لظلت مستغلقة حتى يومنا هذا . والأمر لا يتعلق إطلاقاً بإماطة اللثام عن قضية ديروك ، وإنما بإظهار الحلقة الخفية التى تسببت فى معرفة نهايتها ، وكذلك فى انهاء الصراع الدائر بن بيشو وعزيمة

البوليس السرى بارنيت .

فى تلك المرة كانت مع بيشو ، على الأقل ورقة رابحة كبيرة ، مادام قد أدرك لعبة بارنيت وأصبح يعرف الوسيلة التى سيعمل بها هذا الأخير ، وما دامت القضية ستدور فى نفس الأرض التى سيحتلها بيشو . والواقع أنه فى صباح اليوم الذى حدده له مدير البوليس بنفسه ، طرق باب الجنرال ديروك .

فتح له الباب خادم له كرش كبير ، ويبدو من مظهره ، فى سترته الطويلة كما لو كان من موثقى العقود فى الأقاليم . وأدخل بيشو ، ووقف المفتش من الساعة الثانية حتى الثالثة خلف نافذة ، وراقب ميدان تروكا ديرو . ولكن الفجرية لم تأت ، لا فى ذلك اليوم ولا فى اليوم الذى يليه . ويبدو أن بارنيت قد استراب فى الأمر .

تشبث بيشو برأيه ، واتفق فى ذلك مع الجنرال ديروك ، وهو رجل نحيف طويل القامة ، بادى النشاط والعزم ، يحتفظ تحت سترته الرمادية بمظهر الضابط القديم ، وهو من هؤلاء الرجال المعروفين ببرودهم وصلابتهم ، والذين لا يكثرون الكلام ، ولكن تحت سورة بعض الانفعالات ، يحتدون ويتمادون بكل عنف . وكان شغفه الوحيد هو ابنه ، ولم يكن يشك فى براءته ، ومنذ أن وصل باريس وقد أعلن ذلك فى أحاديثه التى أثارت الرأى العام .

ـ أن جان غير جدير بمثل هذا العمل الشرير . وليس به غير عيب واحد وهو افراطه فى نزاهته . ولا يتردد فى الاضرار بنفسه إلى حد أغفال مصالحه هو بالذات . ولهذا فاننى أرفض أن أراه فى سجنه أو أن أتحدث إلى محاميه . ولا أهتم بتردده وصمته . ولم آت لكى أتفق معه وإنما لكى أدافع عنه ضد نفسه . ولكل امرىء منا دواعيه . وإذا كانت دواعيه أن يلتزم

الصمت فان دواعي أنا تقتضى منى أن أحافظ على اسم العائلة من أى تدنيس .

وصاح فى يوم ضيقوا عليه بالأسئلة :

ـ هل تريدون رأيى ؟ ها هو . أقول دون أية مراعاة أن ابنى لم يختطف تلك المرأة ، وإنما تبعته طواعية . وهو يلتزم الصمت لأنه لا يريد اتهام امرأة ماتت ، وكانت له معها ، على ما أعتقده علاقات وثيقة . فلتبحثوا عن الحقيقة.

وكان هو يبحث بكل همة ونشاط ويقول لبيشو :

ـ أن لى فى كل مكان أصدقاء أقوياء وأوفياء ، يتفانون فى استقصاء هذه القضية ، وهى قضية محدودة النطاق كما تعتقد أنت بالذات أيها المفتش مادام لا ينقصنا ولا ينقصك غير دليل واحد ، وهو الصورة الشهيرة . كل القضية هنا ، بين المالى فيرالدى والخصوم السياسيين لابنى ، بمساعدة بعض وزراء الحكومة للعثور على المستند الذى يدينه . وقد فتشوا البيت وقلبوا كل ما فيه ، وقدم فيرالدى مكافأة لمن يدله على مكانها . فلننتظر . ففى هذه الصورة سيكون لدينا الدليل الساطع على براءة ابنى .

أما بيشو فلم يهمه كثيراً ثبوت براءة الابن أو عدم ثبوتها . فقد كانت مهمته قاصرة على العثور على الصورة . وكان يعرف أنها إذا كانت تثبت براءة النائب ديروك فان اعداءه سيعملون على اخفائها بالذات . ورأى من واجبه أن يكون يقظاً وأن ينتظر البوهيمية التى أبت أن تأتى . وكان يترقب بارنيت الذى ظل مختفياً . وراح يلاحظ حديث الجنرال ديروك ، وكان هذا الأخير ، من ناحيته ، يروى مساعيه وآماله ومخاوفه .

وذات يوم ، بدأ فيه الضابط مستغرقاً فى التفكير ، خاطب بيشو قائلاً :

ـ انتهينا أنا وأصدقائى إلى الاعتقاد أن الشخص الوحيد الذى يمكنه أن يدلنا على اختفاء تلك الصورة هو حارس الأمن الذى اعترض ابنى يوم اعتقاله . ولكن الغريب أن أحداً لم يذكر لنا اسم ذلك الحارس ، لقد جنده الفرقة التى ذهبت لتفتيش البيت واصطحبته معهم من القسم الذى يعمل فيه لمعاونتهم . فماذا حدث له ؟ لا أحد يعلم ، على الأقل بين زملائه . ولكن السلطات العليا تعرفه ، ونحن نثق أيها المفتش أن ذلك الشرطى قد استجوب وأنه وضع تحت مراقبه دقيقة يومية . ويبدو أنهم فتشوا بيته هو الآخر ، وبيت أسرته ، وأنهم فحصوا كل ملابسه وكل مفروشاته . هل أستطيع أن أقول لك اسم المفتش الذى كلفوه بهذه المراقبة .. أنه المفتش بيشو ، الموجود أمامى هنا .

ولم يكذب بيشو الأمر ولم يعترف . فصاح الجنرال :

ـ مسيو بيشو . أن صمتك يزيد معلوماتى ، وأنا واثق أن هذه المعلومات يجب أن تكون لها نتيجة . ويجب أن تأتينى بذلك الشرطى . أبلغ من له الحق بذلك ، وإذا ما رفض فسوف أرى ما يجب على أن أعمل .

وأبلغ بيشو ما طلب منه طواعية ، خاصة وأن خطته لم تنجح . فماذا سيفعل بارنيت ، وما هو الدور الذى يقوم به فى هذه القضية ، فهو ليس بالرجل الذى يبقى مكتوف اليدين ، وسوف يجد نفسه أمامه فجأة ، بعد أن يكون الوقت قد فات .

وأعطته السلطات العليا تفويضاً مطلقاً . وبعد يومين أدخل سيلفستر ، خادم الجنرال ، بيشو والشرطى ريمبورج ، وهو رجل شهم ، هادئ المظهر فى زيه الرسمى ومسدسه وعصاته البيضاء على جانبيه .

وكانت المقابلة طويلة ، ولم تسفر عن أية نتيجة مفيدة ، فقد كان ريمبورج

قاطعاً ، وقال أنه لم ير شيئاً . ومع ذلك فقد ذكر أمراً فهم منه الجنرال أنه يدين بوظيفته التى يشغلها إلى تدخل النائب ديروك وكان قد عرفه فى الجيش .

توسل الجنرال إليه وهدده ، وتكلم باسم ابنه ، ولكن ريمبورج لم يتأثر على الأطلاق ، وقال أنه لم ير الصورة ، وأن النائب ديروك ، فى اضطرابه بالذات ، لم يعرفه . وإذا أعيت الجنرال الحيل استسلم للواقع . وقال له :

ـ أشكرك . وأنى أريد أن أصدقك . ولكن هناك فى علاقاتك مع ابنى مصادفة غريبة بحيث أننى احتفظ بشكوكى .

ودق الجرس ، وقال لسيلفستر عندما أقبل

ـ شيع مستر ريمبورج حتى الباب يا سيلفستر .

خرج الخادم وحارس الأمن . وتناهى إلى اسماع الجنرال وبيشو صوت باب الردهة وهو يغلق . والتقت عينا بيشو فى هذه اللحظة بعين الجنرال . وخيل للمفتش انه يرى فيها تعبيراً ساخراً .. وفرحة غريبة لا يبررها أى شئ . ومع ذلك .

وانقضت بضع لحظات ، وفجأة ، حدث شيء مذهل راح بيشو ينظر إليه فى غباء فى حين أن الجنرال راح يبتسم ، فقد تقدمت إلى الغرفة من الباب الذى ظل مفتوحاً هيئة غريبة . عبارة عن ذراعين يمشيان من كل جهة منها رأس مقلوبة نحو الأرض ، ونصفها الأعلى مستدير ، فوقه ساقان رفيعان يهتزان نحو السقف .

واعتدلت الهيئة فجأة ، ودارت حول نفسها كالنحلة ، على طرف قدم يعتمد القدم الآخر عليه . لم تكن تلك الهيئة غير سيلفستر وقد استولى عليه

الجنون فجأة ، وراح يدور كما يفعل الدرويش . وكرشه الكبير تهزه ضحكة تصعد من فم مفتوح كما لو كان قمعاً عريضاً .

ولكن ، أكانت تلك الهيئة هي سيلفستر حقاً ؟ بدأ بيشو ، أمام هذا المنظر العجيب ، يحس بأن رأسه كلها تتصبب عرقاً . أهذا حقاً سيلفستر ، الخادم البدين ، بمظهره كمسجل عقود في الأرياف .

توقف فجأة أمام بيشو وقد اتسعت عيناه ، وأزال من وجهه التكشيرة التي توتره ، كما لو كانت قناعاً . وفك أزرار سترته وصديره ، وتخلص من بطنه الكارتشوكية وارتدى سترة ناولها له الجنرال ديروك . ونظر إلى بيشو من جديد ، وقال في لهجة قاسية :

- أن بيشو أبله كبير .

لم يغضب بيشو . فقد بدا من مظهره المحزن أنه يرفض بكل الاهانات . وقال في بساطة : بارنيت !

وأجابه الآخر : نعم ، بارنيت .

كان الجنرال ديروك يضحك من قلب خلى . وقال له بارنيت :

- التمس معذرتك يا جنرال . ولكنني ، عندما أنجح ، تتملكني فرحة كبيرة بحيث لا أملك إلا أن أقوم بحركات بهلوانية أو راقصة تثير الضحك .

- إذن فقد نجحت يا مسيو بارنيت !

أجاب بارنيت : أظن ذلك ، وبفضل صديقي العزيز بيشو . ولكن لا يجب أن نجعله ينتظر . ولنبدأ من البداية .

وجلس . وأشعل الجنرال سيجارة . وأشعل بارنيت هو الآخر سيجارة وبدأ يقول :

- حسناً يا صديقي بيشو . جاءتني وأنا في اسبانيا برقية من صديق مشترك يطلب مني مساعدة الجنرال ديروك . وكنت أقوم برحلة غرامية ، ولعلك تتذكر ، مع امرأة ظريفة . ولكن الحب بدأ يفتر بيننا . وانتهزت هذه الفرصة لكي استرد حريتي ، وعدت بصحبة بوهيمية فاتنة ، التقيت بها في غرناطة . ووافقت لي القضية لأنك أنت الذي كلفت بها . واستنتجت على الفور أنه إذا كان هناك دليل على براءة أو إدانة النائب ديروك فلابد من الحصول عليه من حارس الأمن الذي اعترض الطريق أثناء فراره . وهنا ، أعترف لك يا بيشو أنه ، رغم كل الوسائل والمحاولات لم أفلح في معرفة اسم ذلك الرجل الشهم . في العمل ؟ . كانت الأيام تمر ، وأصبحت المحنة قاسية بالنسبة للجنرال وابنه . ولم يبق أمامي غير أمل واحد ، وهو أنت .

لم يتحرك بيشو . أحس بالاحباط التام ، وبأنه أصبح ضحية أسوأ خداع ، فما من علاج ، ولا من أي عمل ممكن . فقد وقع الشر . وعاد بارنيت يقول :

- نعم ، أنت يا بيشو . فقد كنا نعلم إنك انت الذي كلفت بمراقبة واستجواب حارس الأمن . ولكن كيف نجتذبك هنا ؟ كان الأمر سهلاً ، فقد اعترضت طريقك ذات يوم ، وجعلتك تتعقبني حتى ميدان التروكاديرو ، حيث كانت تنتظرني حسنائي البوهيمية . وبيضع كلمات متبادلة همساً ، وبضع نظرات إلى هذا البيت وقعت في الفخ . ولم تعد تفكر إلا في الايقاع بي أو بالبوهيمية . وجعلت من هذا البيت ميدان حرب ، بجوار الجنرال وخادمه سيلفستر ، أي بجواري . وبذلك استطعت أن أراك كل يوم وأن أسمعك ، وأن أثير حماسك بواسطة الجنرال ديروك .

وتحول بارنيت إلى هذا الأخير وقال له :

- لك كل تهانئي يا سيدي الجنرال ، فانك عاملت بيشو برقة وبراعة تغلباً على شكوكه ، وقادانى إلى الهدف وهو أن يضع تحت تصرفنا لبضع دقائق حارس الأمن .. أجل يا بيشو . كانت بضع دقائق كافية تماماً . فماذا كان الغرض ؟ .. غرض البوليس والنيابة والجميع ؟ هو العثور على الصورة ، أليس كذلك ؟ كنت أعرف براعتك ، ولم أشك في أن أبحاثك قد امتدت إلى حدود الاتقان . إذن فلا جدوى من البحث بنفس الطرق والوسائل التى سلكتموها الف مرة . كان يجب أن نتصور شيئاً آخر ... شيئاً آخر غير عادى وغير مألوف ، بحيث إذا أتينا بالحارس هنا نستله منه خفية ومن غير أن يشعر وبسرعة ، فالثياب والجيوب والبطانات وكعوب الأحذيه المجوفة ، كل ذلك خدع مستهلكة . وكان لابد مما تخيلته أنا يا بيشو : المحال والعادى .. المخبأ العجيب والطبيعى فى نفس الوقت والمتوفر بسبب مهنة ذلك الرجل اكثر من أى شخص آخر . ما الذى يتميز به حارس الأمن فى مهنته إذن ؟ ... دوناً عن غيره . ما الذى يميزه عن الشرطى العادى ؟ أو عن مفتش بوليس ؟ فكر وحاول أن تعرف يا بيشو . أننى أمهلك ثلاث ثوان لا أكثر حيث أن الأمر واضح وضوح الشمس ... واحد . اثنان .. ثلاثة ... هل وجدت ؟ ... وهل فهمت ؟

ولكن بيشو لم يفهم ولم يجد . ورغم غرابة الموقف ، راح يحاول أن يجمع أفكاره ، وأن يستعرض أمام عينيه حارس أمن يقوم بوظيفته . وقال بارنيت :

- هلم يا صديقي المسكين .. أنت لست فى أحسن حالاتك اليوم ، وأنت الثاقب الفكر دائماً .. هل يجب أن أضع النقط فوق الحروف ؟

ووضع بارنيت شيئاً فوق أنفه هو بالذات ، وكان قد اندفع خارج الغرفة

ثم عاد وهو يضع فوق أنفه فى حالة توازن عصا الشرطى . تلك العصا الصغيرة البيضاء التى يستخدمها رجال الشرطة فى باريس ، وفى لندن فى حفظ النظام ويسيطرون بها على الشعب ويشيرون بها إلى العربات ويهيمنون بها على اللصوص والأشرار، صفوة القول تلك التى يبدون بها كأنهم ملوك الشوارع وسادة الساعة . وراح بارنيت يقذف بها فى الفضاء ، ثم يستردها فى يده بحركات بهلوانية ويمررها من بين ساقة ثم خلف ظهره وحول عنقه . وأخيراً أمسكها بين سبابته وابهامة وقال :

- أيتها العصا الصغيرة البيضاء .. يا رمز السلطة .. أنت التى أخذتها من حمالة الشرطى ريمبورج ووضعت أخرى شبيهة لك مكانها ، لم أخطىء طبعاً عندما اشتبهت فى أنك المخبأ المثالى الذى نبحث عنه .

وأمسك العصا الصغيرة بيده اليسرى وراح يدير مقبضها بيده اليمنى ، فدار فى يده ولم يلبث أن انفصل عن العصا . وقال :

- هذا ما ظننت تماماً .. يا له من عمل رائع وصعب يكاد يكون مستحيلاً. معجزة من الذكاء والدقة . منذ الذى كان يخطر له أن الشرطى ريمبورج معه مثل هذه المعجزة ، وبأية اعجوبة تمكنوا من حفر قناة بداخلها وصنع مقبض لولبى بحيث لا يستطيع أحد أن يميزها عن غيرها من العصى !

وأخرج بارنيت من تجويف العصا حلقة مستطيلة من النحاس ، بينما كان الجنرال ديروك وبيشو يحدقان فيه فى ذهول . وانقسمت الحلقة إلى جزئين ظهر فى الجزء الأول منها أنبوبة من النحاس هى الأخرى كانت مفروزة فى الحلقة حتى آخرها .

توترت الوجوه ، وانحبست الانفاس . وراح بارنيت يعمل رغماً عنه ، فى

شيء من الخطورة . فأخرج الأنبوبة وراح يضربها فوق المنضدة فسقطت منها لفافة من الورق .

وصاح بيشو وقد امتقع وجهه : الصورة ... إنني أعرفها .

ـ أنت تعرفها . أليس كذلك ؟ ... خمسة عشر سنتيمتراً تقريباً . وقد انتزعت من كرتونتها . وتجعدت تقريباً ... هل تريد أن تبسطها يا سيدى الجنرال ؟

أخذ الجنرال ديروك المستند بيد فقدت هدوءها الطبيعي . كان بها أربع رسائل وبرقية مشبوكة بدبوس . وتأمل الصورة لحظة . ثم عرضها على زميليه وهو يقول بصوت يتهدج قليلاً من فرط الانفعال والسرور . ثم القلق المفاجئ .

ـ صورة امرأة .. امرأة شابة . تضع طفلاً فوق ركبتها .. ملامحها نفس ملامح مدام فيرالدى كما ظهرت في الجرائد .. أنها هي دون شك . منذ تسع أو عشر سنوات . ثم أن التاريخ مدون عليها .. أن الصورة ترجع إلى إحدى عشرة سنة والتوقيع الذى عليها باسم كريستان . وهو نفس اسم مدام فيرالدى .

وغمغم بعد لحظة : ماذا يجب أن نفهم .. هل كان ابنى يعرفها إذن في ذلك الوقت . قبل أن تتزوج ؟

قال بارنيت : اقرأ الرسائل يا سيدى الجنرال .

وناوله أول ورقة . وكانت مستهلكة عند الطيات ومكتوبة بخط نسائى .

وقرأ الجنرال ديروك . وما كاد يقرأ سطورها الأولى حتى كتم صيحة كما لو أنه عرف شيئاً خطيراً ومؤلماً . واستمر في قراءته في لهفة . وقرأ

الرسائل الأخرى ثم البرقية التى قدمها إليه بارنيت . وسكت الجنرال لحظة وقد بدأ عليه الاضطراب والقلق . وقال بارنيت :

ـ هل يمكن أن تفسر لنا الأمر يا سيدى الجنرال ؟

لم يرد الجنرال على الفور . واغرورقت عيناه بالدموع ثم قال أخيراً .

ـ أنا المذنب الحقيقي .. فمنذ اثنتى عشرة سنة أحب ابنى فتاة من عامة الشعب .. عاملة بسيطة .. أنجب منها طفلا ... وأراد أن يتزوجها . ولكننى بكبريائى الغبى رفضت أن أراها واعترضت على ذلك الزواج . وأوشك جان أن يتزوجها رغماً عنى . ولكن الفتاة ضحت بنفسها . وهذه هى الرسالة الأولى .

« الوداع يا جان . أبوك لا يوافق على زواجنا . فلا يجب أن تعصيه فإن ذلك سيجر الشقاء على وليدنا العزيز .. أنني أرسل إليك صورتنا . أنا وهو معاً . فاحتفظ بها معك ولا تنسانا سريعاً » .

ولكن كانت هي التي نسيت . فقد تزوجت فيرالدي . وعهد جان بالطفل إلى مدرس متقدم في السن في ضواحي شارتر . حيث كانت أمه تمضى لرؤيته سراً .

انحنى بارنيت وبيشو . فقد كان الجنرال يتكلم في صوت خافت . كما لو أنه يحدث نفسه وهو لايرفع عينيه عن الرسائل التى توجز الماضى الأليم . وقال :

ـ أما الرسالة الأخيرة فترجع إلى خمسة شهور .. بضعة سطور تعترف فيها كريستيان بأسفها وندمها وتقول أنها تحب الطفل كل الحب ثم لا شيء. وأخيراً هذه البرقية . وقد ارسلها المدرس إلى جان ويقول فيها : « الولد

مريض جداً فقال «وعلى هذه البرقية كتب ابني هذه العبارة المهولة التي تشير إلى النهاية القطيعة : ابننا مات وكروسقيانا انتحرت .

لزم الجنرال الصمت من جديد . على أن الحقائق كانت تفسر نفسها ، فما أن تلقى جان البرقية حتى بحث عن كريستيان وجرها وهي متخاذلة نحو السيارة . وأثناء العودة من شارتر ، بعد أن قبلت ابنها الميت استولت عليها أزمة من اليأس وانتحرت .

وقال جيم بارنيت مستفهماً : علام عولت يا سيدي الجنرال ؟

- سأعلن الحقيقة طبعاً ، فإذا كان جان لم يتكلم فذلك لا لكي يتهم الميتة بالتأكيد وإنما لكي لا يتهمني أنا ، فأنا المسئول عن هذه القصة المحزنة . ومع ذلك ، فرغم ثقته بأن مدرس شارتر لن يخونه ، وبأن حارس الأمن ريمبودج سيلزم الصمت هو الآخر فانه أراد أن لا تضيع الحقيقة وأن يدع القدر يتصرف وفق ما يشاء . وما دمت قد أفلحت يا مسيو بارنيت ..

- أنني أفلحت يا سيدي الجنرال بفضل صديقي بيشو ، فلا تنس ذلك . فلو أنه لم يأتني بالشرطي ريمبودج وبعصاه البيضاء لخسرت المعركة . فاشكر بيشو يا سيدي الجنرال .

- أنني اشكر كما معا ، فقد أنقذتما ابني ، ولن أتردد في القيام بواجبي.

أقره بيشو وقد تأثر بالاحداث بحيث تغلب على كرامته وتخلى عن الحصول على المستندات التي يبحث عنها البوليس ، وتغلب ضميره الانساني على ضميره المهني . وإذ مضى الجنرال إلى غرفته اقترب من بارنيت ، والقى بيده على كتفه وهو يقول :

- أنني القي القبض عليك يا جيم بارنيت .

قال ذلك في سذاجة من يعرف تماماً أن تهديده غير مجد ، وأنه إنما ينطق به مدفوعاً بارضاء ضميره ولكي لا يخل بواجبه ، وهو إلقاء القبض على بارنيت .

وصاح هذا الأخير وهو يبسط له يده :

- أحسنت يا بيشو ، فها أنت قد ألقيت على القبض واعتقلتني ، وتغلبت علي بحيث لا يمكن لأحد أن يلومك . والآن ، وإذا سمحت ، فانني سأهرب حتى لا تظل صداقتك أية شائبة .

قال بيشو بتلك السذاجة التي يتميز بها وتجعله محبوباً من الجميع :

- أنك تفوقت علينا جميعاً يا بارنيت ، وأن ما قمت به الآن لمعجزة حقاً . كيف ضمنت هذا ؟ .. كيف ضمنت وجود هذا المخبأ العجيب في عصا حارس الأمن ، وذلك دون أي دليل ؟

ضحك بارنيت وقال : آه ، أن طعم المكسب يشحن الخيال .

قال بيشو في قلق : أي مكسب ؟ ليس ما سيقدمه لك الجنرال ديروك على ما أظن .

- وما سأرفضه طبعاً ، فان مكتب بارنيت يعمل بالمجان ، فلا تنس ذلك .

- اذن ؟

قال جيم بارنيت في ضراوة : إذن ... وأنا أقرأ الرسالة الرابعة بركن عيني عرفت أن كريستيان فاليري قد صارحت زوجها منذ البداية بماضيها . وبذلك ، فانه بعلمه بعلاقة زوجته القديمة ووجود الطفل قد خدع العدالة باخفائه هذه الحقيقة وذلك بغرض انتقامه من جان ديروك وارساله إذا أمكن

إلى الشقة . وهو تصرف شنيع كما نعرف . فهل تعتقد أن الثرى فيرالدى لن يسره شراء مثل هذا الخطاب المشين ... إذا ذهب إليه رجل شهم يريد كتمان الأمر ويعرض عليه ذلك بكل رفق ألا تعتقد أن فيرالدى سيقدم له مبلغاً محترماً . ومهما يكن فقد احتفظت بالرسالة في جيبى .

تنهد بيشو ، ولكنه لم ينطق بكلمة احتجاج . فالمهم أن البراءة قد ظهرت وأن الخير قد تغلب على الشر وأن الحق قد ظهر بصورة أو بأخرى . ولا يضيره تلك الاستقطاعات التى يقوم بها بارنيت في آخر دقيقة على حساب المذنبين والخطاة . وقال :

ـ الوداع يا بارنيت . ومن الخير أن لا نلتقى بعد اليوم وإلا انتهيت بأن أفقد ضميرى المهنى إلى الأبد . الوداع .

ـ الوداع إذن يا بيشو . أننى أفهم دوافعك وهى دوافع تشرفك .

***

بعد بضعة أيام تلقى بيشو الرسالة التالية من بارنيت .

« أنهى إليك هذا النبأ السعيد يا صديقى العزيز ، فرغم أنك لم تعتقل هذا الخبيث بارنيت كما وعدت ، ورغم انك لم تحصل على الصورة الفوتوغرافية كما صدر إليك الأمر بذلك فانني استبسلت في الدفاع عنك وفي اظهار الدور العظيم الذى قمت به في هذه القضية بحيث أنني حصلت على ترقيتك إلى رتبة رئيس المفتشين » .

أتى بيشو بحركة تدل على الغضب . كيف يدين بترقيته لبارنيت ؟ لم يكن هذا بالأمر المقبول .

ولكن ، من ناحية أخرى ، كيف يرفض اقرار المجتمع واعترافه بخدماته الجليلة وهو يعرف أنه يستحق تلك الترقية بكل جدارة .

وكان أن مزق الرسالة وقبل الترقية .

***

٢ أديث العنقاء

- ما رأيك الحقيقي في المفتش جانيمار ؟

- أنه رجل ممتاز .

- ممتاز ؟ .. لماذا لا تترك فرصة إذن إلا وتجعل منه أداة لسخريتك ؟

- إن هي إلا عادة سيئة ، وأنا شديد الندم لذلك . ولكن ماذا تريد . أنها القاعدة . فهو رجل قدير من رجال البوليس ، وهناك الكثير من رجال البوليس المكلفون بحفظ النظام والدفاع ، عنا ضد اللصوص ، ويتعرضون للقتل في سبيلنا نحن الرجال الشرفاء ، ولا نعاملهم مقابل ذلك إلا بالتهكم والإزدراء ، وهذا منتهى الغباء .

- مرحى يا لوبين .. أنك تتكلم كبورجوازى صالح .

- وماذا تظنني إذن ؟ ... اذا كان لي أراء خاصة فيما يتعلق بملكية الغير فانني أقسم لك أن ذلك يختلف تماماً إذا ما تعلق الأمر بملكيتي أنا . والحق أنني انصح بأن لا يفكر أحد في المساس بما يخصني لأنني أغدو عنيفاً عندئذ . أوه .. أوه .. أن ممتلكاتي ومحفظتي وساعتي .. ممنوع لمسها . أن لي روح الحافظ يا صديقي العزيز ، وغريزة رجل له دخل صغير عليه

احترام كل التقاليد وكل السلطات ، ولهذا يوحي إلى جانيمار بالكثير من التقدير والعرفان .

- ولكنه لا يوحي إليك إلا بقليل من الاعجاب .

- بل بإعجاب كبير كذلك . ففضلا عن شجاعته التي لا تقهر ، وهي ميزة رجال البوليس ، فان جانيمار له مزايا كبيرة جداً . فهو لا يفتقر إلى الحزم ولا إلى الذكاء والحصافة ، وقد رأيته وهو يعمل . وأنه رجل .. هل تعرف القضية التي اشتهرت باسم قضية أديث العنقاء .

- كما يعرفها الجميع .

- إذن فأنت تعرف عنها القليل . حسناً . قد تكون هي القضية التي اتقنت تدبيرها بكل عناية وبكل حرص وجمعت فيها كل الغموض والأسرار ، والتي نفذتها بكل مهارة وهدوء ، كانها مباراة دقيقة في الشطرنج ... دقة وبراعة فائقين ، ومع ذلك فان جانيمار انتهى بأن فك طلاسمها . وإذا كان أولو الأمر في إدارة البوليس يعرفون الحقيقة الآن فالفضل في ذلك له وحده ، وأؤكد لك أنها حقيقة ما كانت تخطر على بال أحد .

- وهل أستطيع معرفتها ؟

بالتأكيد . في ذات يوم . عندما أجد متسعاً من الوقت . ولكن البروتللي ترقص الليلة في الأوبرا ، وإذا هي لم ترني في مقعدي ...

ولقاءاتي بلوبين نادرة ، ثم أنه يدلي إلي باعترافاته بصعوبة ، وعندما يروق له ذلك . ولم أعرف مراحل هذه القصة إلا بكلمات متقطعة من وقت لآخر ، وفلتات من اعترافاته جمعتها فيما بعد ، وأسوقها إليكم الآن بكل تفاصيلها .

***

والبداية معروفة . وسأكتفي بعرض الحقائق .

منذ ثلاث سنوات ، عندما بلغ القطار القادم من برست محطة ...
وُجد باب إحدى الركبات محطماً . وكان قد استأجرها ثرى برازيلى يدعى الكولونل سبارميينتو ، وكان يسافر مع زوجته في نفس القطار .

وكان بالمركبة التى تحطم بابها مجموعة من السجاجيد . واقتحم صندوق يحتوى على سجاده منها ، وقد اختفت من الصندوق .

وقدم الكولونل سبارمييتو شكوى ضد شركة السكك الحديدية ، وطالب بتعويض كبير بسبب انخفاض قيمة المجموعة كلها نتيجة لتلك السرقة .

وقام البوليس بالتحقيق . ووعدت الشركة بمنح مكافأة كبيرة . وبعد أسبوعين وصل إلى البوليس خطاب غير مختوم تقريباً عرفوا منه أن السرقة وقعت تحت إشراف ارسين لوبين ، وأن السجاده سترسل فى طرد إلى أمريكا الشمالية . وفى نفس الليلة عثروا على السجادة في حقيبة مودعة بمكتب أمانات محطة سالازار .

وهكذا فشلت السرقة . وأحس لوبين بالاستياء ، بحيث أودع كل غضبه فى رسالة أرسلها للكولونل سبارميينتو يقول له فيها : أننى كنت من الرقه وحسن الذوق بحيث لم أشأ أن آخذ غير سجاده واحدة . ولكننى سآخذ الاثنتى عشرة كلها فى المرة القادمة . ولقد أعذر من أنذر . ولك تحياتى » .

كان الكولونل سبارميينتو يقيم منذ بضعة شهور فى بيت يقع فى آخر حديقة على ناصية شارعى فيزاندرى ودوفرينوى . وكان رجلاً قوياً عريض الكتفين ، أسود الشعر ، أسمر البشرة ، بسيط فى أناقته . تزوج امرأة انجليزية فائقة الجمال ، ولكنها رقيقة الصحة أثرت فيها سرقة السجاده تأثيراً كبيراً . ومنذ أول يوم توسلت إلى زوجها أن يبيعها كلها بأى ثمن .

ولكن الكولونل كان قوى الإرادة ، صلب الرأى ، فلم يقبل ان يستسلم لنزوة امرأة ، كما يقول ، ولم يبع شيئاً ، وانما بالغ فى أخذ الاحتياطات ، وأحاط نفسه بوسائل يتعذر معها سرقة أى شىء .

سد جميع نوافذ الطابقين الأرضى والأول التى تطل على شارع دوفرينوى وذلك حتى لا يتعين عليه مراقبة شىء آخر غير واجهة البيت التى تطل على الحديقة . ثم طلب من شركة خاصة بتأمين البيوت أن تقوم بحماية بيته ، فزودت جميع نوافذ القاعة التى علقت فيها السجاجيد بأجهزة انذار خاصة غير ظاهرة . كان هو وحده يعرف مكانها . وتضيىء أنوار البيت كله بمجرد لمسها ، وتصدر رنيناً ودوياً لا ينقطعان .

ثم أن شركات التأمين التى لجأ إليها لم تقبل التأمين على سجاجيده إلا إذا أقام لديه فى الطابق الأرضى ثلاثه رجال من قبلها على أن يدفع أجورهم . واختارت لذلك ثلاثة من مفتشى البوليس القدامى المحنكين والأمناء ، يحقدون على لوبين كل الحقد .

أما الخدم فكان الكولونل يعرفهم منذ وقت طويل وقد ضمنهم .

وبعد اتخاذ كل هذه الإجراءات ، وبعد أن زود البيت بأجهزة دفاع كما لو كان حصناً ، أقام الكولونل حفلة استقبال كبيرة لعرض مقتنياته دعا إليها أعضاء الناديين اللذين ينتمى إليهما وعدداً من النساء والصحفيين وهواة جمع التحف والنقاد الفنيين .

وما أن اجتاز كل من المدعوين باب الحديقة حتى خيل إليه أنه يدخل سجناً ، فقد وقف المفتشون الثلاثة عند أسفل السلم وراحوا يطلبون بطاقة الدعوة من كل منهم وينظرون إليه بعين فاحصة مستريبة ، حتى أنه كان يخيل إليه انهم قد يطلبون تفتيشه أو أخذ بصمات أصابعه .

وقف الكولونيل في الطابق الأول يستقبل مدعويه ويعتذر إليهم وهو يضحك وقد أسعده أن يشرح لهم الإجراءات التي تصورها لتأمين سجاجيده .

ووقفت زوجته بجواره ، رقيقة ، بشبابها وظرفها ، شقراء ، شاحبة ، غضة ، على ملامحها سمة من الحزن والدعة ، وهي سمة استسلام الأشخاص الذين يهددهم القدر .

وعندما اجتمع كل المدعوين ، أغلقوا باب الحديقة وأبواب الردهة ثم انتقلوا إلى القاعة الرئيسية عبر أبواب مزدوجة مصفحة وزودت نوافذها العالية بقضبان من الحديد .. في تلك القاعة كانت السجاجيد الاثنتي عشرة .

تحفاً فنية رائعة لا مثيل لها مستوحاة من نسيج بايو الذي ينسب إلى الملكة ما تيلده ، تمثل قصة غزو انجلترا ، صنعت في القرن السادس عشر بناء على طلب قائد من قواد الجيش كان يرافق غليوم الفاتح ، ونسجها جان جوسيه ، نساج اراس الشهير ، وتم العثور عليها بعد خمسمائة سنة في بيت قديم بيرتياني . وإذ عرف الكولونيل بأمرها اشتراها كلها بخمسين ألف فرنك في حين أنها تساوي هذا المبلغ عشرين مرة .

ولكن أجمل تلك السجاجيد الاثنتي عشرة هي بالذات السجادة التي سبق أن سرقها أرسين لوبين ، والتي استطاعوا استعادتها . كانت تصور أديث العنقاء ، وهي تبحث بين موتى هاستنجز عن جثة حبيبها هارولد ، آخر ملوك الساكسون .

وقف المدعوون أمام هذه اللوحة يبدون إعجابهم الفائق بجمالها وبألوانها الباهتة وبتجميع الأشخاص والحزن البالغ الذي يوحيه المنظر .. وصورة

أديث العنقاء ، الملكة المسكينة الشبيه كزهرة الزنبق الثقيلة . كان ثوبها الأبيض ينم عن جسدها الضعيف . ويداها الطويلتان الرقيقتان تمتدان في حركة هلع وتوسل . ولم يكن هناك ما هو أكثر حزناً من جانب وجهها الذي تعلوه أكثر الابتسامات حزناً وأشدها يأساً .

وقال أحد النقاد ، وكانوا يستمعون إليه في احترام : ابتسامة مؤثرة ، ابتسامة حافلة بالفتنة مع ذلك ، تجعلني أفكر يا كولونيل في مدام سارميينتو .

وبدت الملاحظة حقيقية . وعاد يقول في إصرار : وهناك نقاط تشابه أخرى استرعت انتباهي على الفور . وهي انحناءة العنق ورقة اليدين ، وكذلك شيء آخر في المظهر .. وفي الهيئة المألوفة .

اعترف الكولونيل قائلاً : هذا صحيح تماماً إلى حد أن هذا التشابه هو الذي حملني على شراء السجادة . ثم أن هناك سبباً آخر ، وهو أن من الصدف الغريبة حقاً أن زوجتي تدعى أديث بالذات . وقد سميتها منذ أن اشتريت السجادة بأديث العنقاء .

وأردف الكولونيل وهو يضحك : وأتمنى أن يتوقف التشابه عند هذا الحد وأن لا تضطر عزيزتي أديث إلى أن تبحث عن جثة حبيبها كما تفعل صاحبة اللوحة . فأنا حي أرزق وليست بي أية رغبة في أن أموت . ولن يقع ذلك إلا إذا حدث واختفت اللوحات فانني لا أضمن ما قد يدور في ذهني عندئذ .

وضحك وهو ينطق بكلماته الأخيرة . ولكن ضحكته لم تجد لها صدى . وفي الأيام التي تلت ، وفي كل الروايات التي قيلت بصدد تلك الحفلة تخللها نفس الضيق والصمت . فلم يعرف المدعوون ماذا يقولون .

وأراد أحدهم أن يمزح فقال : أيكون اسمك هارولد يا كولونيل .

أجاب فى مرح ظاهر : كلا . ليس اسمى هارولد ، ثم إننى لا أشبه الملك السكسونى .

وقد اتفق الجميع بعد ذلك على التأكيد بانه ، فى اللحظة التى فرغ فيها الكولونل من عبارته تلك صدر من إحدى النوافذ رنين حاد . ولكن اختلف الجميع فمن قائل أن الصوت صدر من النافذة التى إلى اليمين ، ومن قائل أنه صدر من النافذة التى إلى اليسار . وقد أعقب ذلك الرنين صرخة فزع أطلقتها مدام سبارميينتو ، وهى تتشبث بذراع زوجها . فقال :

ـ ما هذا .. ما معنى هذا ؟

تجمد المدعوون فى أماكنهم ، وراحوا ينظرون إلى النافذتين .

وعاد الكولونل يقول :

ـ ما معنى هذا ؟ .. اننى لا أفهم شيئاً .. لا أحد فيهم يعرف مكان هذا الجرس .

وفى نفس اللحظة ، وقد أجمع الجميع على ذلك أيضاً ، فى نفس اللحظة ساد الظلام التام وعلى الفور ، ومن اعلا البيت إلى أسفله ، وفى كل الغرف، وفى كل القاعات ومن كل النوافذ ، انطلق الدوى من كل الأجراس .

وساد الهرج والمرج بضع ثوان ، وعم الذعر الجنونى . صرخت النساء ، وراح الرجال يدقون على الابواب الموصدة بأيديهم فى جنون ، وأخذوا يتدافعون بالمناكب ، ووقعوا فوق بعضهم البعض . وكان الذعر أشبه بذلك الذى يحدث عند اندلاع حريق لا يبقى ولا يذر أو انفجار قنبلة . وصاح الكولنل وغطى بصوته على كل شىء، وهو يقول :

ـ اصمتوا . لا تتحركوا .. اننى كفيل بكل شىء ... أن مفتاح النور هنا .

فى الركن .. ها هو .

وشق طريقه فعلاً بين المدعوين ، وبلغ ركن القاعة ، وفجأة سطع النور الكهربائى من جديد ، وتوقف دوى الأجراس على الفور .

وعندئذ وفى النور الساطع بدأ منظر غريب . فقد أغمى على سيدتين . وكانت مدام سبارمييتو متشبثة بذراع زوجها وتبدو كالميتة . أما الرجال فقد بدلهم الروع وتشوشت ثيابهم لفرط ما عم من فوضى وارتباك .

وصاح أحدهم : أن السجادات موجودة .

وكانت الدهشة بالغة ، كما لو أن اختفاء تلك السجادات كان يجب أن يكون النتيجة الوحيدة المعقولة لتفسير ما حدث .

ولكن لم يتحرك شىء ، وحتى بعض اللوحات النفيسة كانت لا تزال مكانها . ورغم أن الضجة ملأت البيت كله ورغم أن دوى الأجراس كان فى كل مكان فان المفتشين الثلاثة لم يروا أحداً يدخل أو يحاول الدخول .

وقال الكولونل : وعلى كل حال فان نوافذ هذه القاعة وحدها هى المزودة بجهازات الانذار ، وأنا وحدى أعرف طريقة تشغيلها .

وضحكوا كثيراً من تلك الغارة الكاذبة ، ولكنهم ضحكوا دون اقتناع ، وفى شىء من الخجل ، إذا أحس كل واحد بسخافة تصرفه . وساد بينهم جو من القلق والانزعاج .

ومع ذلك فقد مكث صحفيان ، انضم إليهما الكولونل بعد أن عنى باديث وعهد بها إلى بعض الخادمات . وقاموا ثلاثتهم ، مع المفتشين ببحث دقيق لم يسفر عن شىء . ثم جاء الكولونل بزجاجة شمبانيا . ونتيجة لذلك لم يغادر الصحفيان البيت إلا فى ساعة متأخرة . فى نحو الثالثة إلا الربع ، وأوى

الكولونل إلى غرفته ، وعاد المفتشون إلى غرفتهم التي خصصت لهم في الطابق الأرضي .

وتناوب الثلاثة الحراسة ، كل بدوره ، وفي حراسة تقوم على بقائه ساهراً ثم القيام بجولة في الحديقة ويصعد إلى القاعة .

قاموا بهذا العمل بدقة تامة ، فيما عدا بين الساعة الخامسة حتى السابعة صباحاً ، فقد غلبهم النوم ولم يقوموا بجولاتهم . ولكن النهار كان قد طلع في الشارع ، ثم أن الأجراس ظلت صامتة ، فلماذا يظلون ساهرين ؟

ومع ذلك ، ففي الساعة السابعة والدقيقة العشرين ، عندما فتح أحدهم باب القاعة والنوافذ تحقق من اختفاء الاثنتي عشرة سجادة .

***

بعد ذلك أنبت الجهات العليا ذلك الرجل وزميليه لأنهم لم يبلغوا الأمر على الفور ، ولأنهم بدأوا الأبحاث قبل أن يخبروا الكولونل أو إدارة البوليس . ولكن ما كان لهذا التأخير ، وله عذره ، ليعرقل سير التحقيق .

ومهما يكن فلم يعلم الكولونل بالحادث إلا في الساعة الثامنة والنصف فحسب . وكان مرتدياً كل ثيابه ويستعد للخروج . وبدا كان الخبر لم يؤثر فيه على الاطلاق ، أو على الأقل ، أفلح في التغلب على انفعالاته . ولكن لا ريب أن الجهد كان كبيراً جداً لأنه تهالك فجأة فوق مقعد ، واستسلم بضع لحظات لسورة حقيقية من اليأس . وكان يأساً شديداً ، إذا نظرنا إلى ذلك الرجل المعروف بالحزم والنشاط .

واسترد نفسه ، وتغلب على يأسه ، ومضى إلى القاعة ، ونظر إلى

الجدران العارية ثم جلس أمام منضدة وسطر رسالة سريعة وضعها في ظرف وختمه وقال :

ـ خذ هذا .. إنني على عجل من أمري .. موعد في غاية الأهمية .. هذه الرسالة لمدير البوليس .

وإذ حدجه المفتشون قال : هذا مجرد إحساس أنقله لمدير البوليس . مجرد اشتباه خطر ببالي . فليتحقق منه . ومن ناحيتي ، سأبدأ ببحث سريع .

وانصرف وهو يجري بحركات تذكر المفتشون فيما بعد أنها كانت تنم عن الارتباك والاضطراب .

وبعد بضع دقائق ، أقبل مدير البوليس ، فأعطوه الرسالة . كانت تضم هذه الكلمات :

« فلتغفر لي زوجتي الحبيبة الألم الذي سأسببه لها .. حتى اللحظة الأخيرة ، سيكون إسمها على لساني .

وهكذا ، بعد لحظة جنون ، وبعد ليلة عاني فيها من الضغط العصبي تسبب له في نوع من الحمى ، أسرع الكولونل لكي ينتحر . فهل تواتيه الشجاعة على الاقدام على مثل هذا العمل أم يتردد في آخر لحظة .

أخبروا مدام سبارمينتو . وانتظرت نتيجة أبحاثهم للعثور على أثر الكولونل وهي تلهث من الفزع .

وفي آخر الأصيل جاءت مكالمة من مدينة فيل دافري ، فعند خروج الموظفين من النفق ، بعد مرور القطار ، عثروا على جثة ممزقة تمزيقاً بشعاً ، ولم يعد للوجه أية صورة بشرية . ولم يكن بجيوبها أية أوراق . ولكن

الأوصاف تطابقت مع أوصاف الكولونل .

وفى الساعة السابعة مساء ، هبطت مدام سبارمييتتو فى فيل دافرى ، واقتيدت إلى إحدى غرف المحطة ، وعندما رفعوا الغطاء الذى يغطى الجثة تعرفت أديث العنقاء على جثة زوجها .

وفى هذه المناسبة لم تكن الصحافة فى صف لوبين كما كانت العادة دائماً .

وكتب أحد الكتاب الساخرين ملخصاً رأى الجمهور فقال : فليأخذ حذره ، فلو أن مثل هذه المغامرة تحدث مرة أخرى فسيفقد ما أولياه من عطف حتى الآن . ولوبين ليس مقبولاً إلا اذا ما وقعت نذالاته على كبار رجال المال والشركات المالية والمساهمة وما لم يقتل على الخصوص . أن يمارس السرقة فليكن ، أما أن يرتكب جريمة قتل فلا ، وهو إذا لم يكن قد قتل فهو مسئول على الأقل عن موت الكولونل ، أنه تسبب فى إراقة الدماء .

وازداد غضب الجمهور وحقده بسبب رثائه لأديث ، المخلوقة الوديعة المعتلة الصحة . وتكلم مدعوو الأمس ، وعرف الجميع تفاصيل ما حدث عندئذ . وأحاطت بالانجليزية هالة أسطوريه استعيرت من الفاجعة المأساوية التى وقعت للملكة أديث العنقاء .

ومع ذلك فلم يستطع أحد إنكار إعجابه بالطريقة البارعة التى نفذت بها السرقة . وقد شرح البوليس على الفور كيفية تنفيذها . فقد تحقق المفتشون الثلاثة منذ البداية (واكدوا ذلك فيما بعد) أن إحدى نوافذ القاعة الثلاثة كانت مفتوحة على مصراعيها ، فكيف يكون هناك شك فى إن لوبين وأعوانه لم يدخلوا من هذه النافذة .

كانت النظرية معقولة جداً . ولكن كيف استطاعوا ، أولاً : اجتياز باب

الحديقة . وثانياً : عبور الحديقة ووضع سلم فوق الأرض دون ترك أية آثار . ثالثاً : فتح مصراعى النافذة دون أن تنطلق أجراس الانذار . ودون أن تضاء أنوار القصر .

أما الجمهور فقد اتهم المفتشين الثلاثة . وقد استجوبهم قاضى التحقيق كثيراً ، وتحرى عن حياتهم الخاصة ، وتقصى ماضيهم ، وأعلن بما لا يقبل الشك بأنهم فوق الشبهات .

أما السجاجيد فلم يعد هناك ما يدل على أنهم سيعثرون عليها .

فى ذلك الوقت عاد المفتش جانيمار من الهند بعد فراغه من التحقيق فى إحدى القضايا التى استدعت انتقاله إلى هناك . ولما علم أن لوبين هو الذى سرق السجادات طلب من رؤسائه أجازة لمدة خمسة عشر يوماً ، وتقدم إلى مدام سبارمييتتو ووعدها بأن ينتقم لزوجها .

ولكن أديث كانت قد بلغت تلك الرحلة حيث لا تخفف فكرة الانتقام الحزن واللوحة اللذين يعصفان بها ، فطردت فى مساء يوم الدفن بالذات المفتشين الثلاثة واستبدلتهم بخادم واحد وامرأة متقدمة فى السن لكى تقوم بشئون البيت ، وهما خادمان كانا يعيدان الماضى إلى ذاكرتها بكل قسوة ، ولهذا انفردت فى غرفتها ، لا تبالى بأى شئ ، وتركت جانيمار يتصرف كما يحلو له .

وجعل المفتش إقامته فى الطابق الأرضى ، وطفق يقوم ، على الفور ، بأبحاث دقيقة . وبدأ التحقيق من البداية . واستعلم فى الحى ودرس موضع البيت وأطلق أجهزة الانذار عشرين ، بل ثلاثين مرة .

وبعد خمسة عشر يوماً طلب إطالة مدة أجازته . وأقبل رئيس البوليس ، وكان يومئذ مسيو ديدوا ، لزيارته ، وفاجأه واقفاً فى أعلا السلم بالقاعة .

في ذلك اليوم أعترف المفتش العام بعدم جدوى أبحاثه .

ولكن في غداة اليوم التالي ، مر مسيو ديدوا من هناك ورأى جانيمار مشغول البال وقد بسط بعض الجرائد أمامه . وإذ ضيق عليه رئيس البوليس بالأسئلة قال له :

- لا أدرى يا سيدى الرئيس .. لا أدرى أبداً . ولكن هناك فكرة تؤرقني .. غير أنها فكرة جنونية للغاية .. ثم أنها لا تفسر شيء ، بل على العكس تزيد الأمور تعقيداً .

- وإذن ؟

- إذن أتوسل إليك أيها الرئيس أن تتجمل بالصبر قليلا وتدعني أعمل . ولكن إذا اتصلت بك فجأة فيجب أن تستقل أول سيارة وأن لا تضيع دقيقة واحدة .. ذلك أني قد أكون اهتديت إلى السر .

ومرت ثمان وأربعون ساعة أخرى . وتلقى مسيو ديدوا رسالة صغيرة :

« ج أنني مسافر إلى مدينة ليل .

جانيمار »

وقال رئيس البوليس : ما الذي دعاك إلى المضي هناك بحق الشيطان ؟

ومضى اليوم بدون أنباء ، ثم يوم آخر .

ولكن مسيو ديدوا كان يثق بالمفتش ، وكان يعرفه جيداً ، ويعرف أنه ليس من هؤلاء الذين يتحمسون دون سبب ظاهر . وإذا كان قد سافر إلى ليل فلابد أن هناك أسباباً وجيهة دعته إلى السفر .

والواقع أنه في مساء اليوم الثاني جاءته مكالمة :

- أهذا أنت أيها الرئيس ؟

- أهذا أنت يا جانيمار ؟

كان كل منهما شديد الحرص . وتأكد كل منهما من الآخر . وإذ اطمأن جانيمار أسرع يقول

- عشرة رجال فورا أيها الرئيس . وأرجوك أن تكون أنت نفسك معهم .

- أين أنت ؟

- في البيت . بالطابق الأرضي . ولكنني انتظرك خلف باب الحديقة .

- أنا قادم . في السيارة طبعاً .

- نعم أيها الرئيس . وأوقف السيارة على بعد مائة قدم . وسأسرع أنا إليك بمجرد أن أسمع صفيرك .

وتمت الأمور طبقاً لتعليمات جانيمار . وبعد منتصف الليل بقليل ، وإذ رأى أنوار الطوابق العليا مطفأة تسلل إلى الشارع وأسرع للقاء مسيو ديدوا . ودار بينهما حديث قصير . وأطاع رجال الشرطة أوامر جانيمار ، ثم مضى هو والرئيس وأجتازا الحديقة في سكون وانفردا وحدهما في حرص شديد . وقال ديدوا

- حسناً . ما معنى كل هذا ؟ كأننا نتآمر حتماً .

ولكن جانيمار لم يضحك . لم يره مسيو ديدوا منفعلاً هكذا أبداً ، ولم يسمعه يتكلم بمثل هذا الاهتياج .

- هل من جديد يا جانيمار ؟

- نعم . أيها الرئيس . ولكنني لا أكاد أصدق هذه المرة ومع ذلك فأنا لم

اخطى . فقد عرفت كل الحقيقة . ورغم أنها تبدو غير معقولة إلا أنها حقيقية . حقيقية تماماً .. ولا يمكن إلا أن تكون كذلك

وجفف قطرات العرق الذى يتصبب من جبينه . وإذ سأله مسيو نيبوا . جرع قدحاً من الماء ثم قال :

ـ أن لوبين خدعني كثيراً .

قال مسيو نيبوا : هل لك أن تمضى إلى الغاية رأساً . ما الخبر فى كلمتين اثنتين ؟

اجاب جانيمار معترضاً : كلا . أيها الرئيس . يجب أن تعرف المراحل المختلفة التى مررت بها . وأرجو المعذرة . ولكننى أعتقد أن هذا ضرورى .

وعاد يقول : كنت أقول أن لوبين خدعني كثيراً . واذاقنى مر العذاب . ولكن فى ذلك النضال الذى غلبنى فيه حتى اليوم . عرفت على الأقل طريقته فى العمل . وفيما يتعلق بقضية السجاجيد فقد ألقيت على نفسى سؤالين على الفور .

أولاً : أن لوبين لا يقدم على شىء ابداً دون أن يتأكد من نتيجته . وكان يجب أن يعلم أن انتحار الكولونل سبارميينتو ستكون نتيجة محتملة لاختفاء السجاجيد . ومع ذلك . وعلى الرغم من أن لوبين يكره الدم فانه سرق السجاجيد مع ذلك .

قال مسيو نيبوا : أغرته قيمتها التى تربو على السبعمائة أو الثمانمائة ألف فرنك .

ـ كلا أيها الرئيس . أعود فاقول لك أنه مهما تكن الفرصة . فلا شىء فى العالم . ولا حتى من أجل ملايين وملايين . فلا يقتل لوبين ولا يريد حتى أن

يتسبب فى الموت . هذه اول نقطة

وثانياً : لماذا تلك الضجة مساء اليوم السابق . اثناء الحفلة . لالقاء الذعر فى النفوس فحسب . ولكى يخلق حول المسألة . وفى بضع دقائق جواً من القلق والرعب . وأخيراً لكى يحرك الشكوك عن حقيقة قد يشتبه فيها أحد بدون شك . ألا تفهم ؟

ـ كلا بالطبع .

قال جانيمار . الواقع أن الأمر غير واضح . وأنا بالذات . وأنا أفكر فى هذه النقاط لم أكن أفهم شيئاً . ومع ذلك فقد كان لدى إحساس بأننى أسير فى الطريق الصحيح .. نعم . لم يكن هناك شك فى أن لوبين يريد أن يوجه الشكوك إليه حتى يبقى الشخص الذى يدير العملية غير معروف .

قال مسيو نيبوا . هل تعنى شريكاً ؟ .. شريكا اختلط بالمدعوين . وأطلق اجهزة الانذار . واستطاع أن يختبىء فى القصر بعد انصراف الجميع ؟

ـ هو ذلك . هو ذلك .. من المؤكد أن السجاجيد لم تسرق إلا بواسطة شخص بقى فى القصر خلسة . ولكن من المؤكد أيضاً أننا إذا فحصنا قائمة المدعوين فربما

ـ حسناً ؟

ـ ولكن هناك شىء آخر مؤكد هو أيضاً . فان المفتشين الثلاثة كانت معهم قائمة بأسماء المدعوين . وقد تحققوا أن ثلاثة وستين مدعوا دخلوا القصر وان ثلاثة وستين قد غادروه وإذ ..

ـ أحد الخدم ؟ ..

ـ كلا .

ـ المفتشون ؟

ـ كلا .

قال الرئيس وقد نفد صبره ومع ذلك ، إذا كانت السرقة قد تمت من الداخل ..

قال المفتش في انفعال متزايد : هذه نقطة أكيدة . ولا يمكن التردد فيها . فكل أبحاثي قادتني إلى هذه الوجهة . وشيئاً فشيئاً انتهيت إلى تبني هذه الحقيقة المذهلة .

ـ فمن الناحية النظرية ، ومن الناحية المسلم بها لا يمكن أن تكون السرقة قد نفذت إلا من شريك مقيم في البيت . ولكن ليس هناك شريك .

قال مسيو ديبوا ما هذا الهراء ؟

ـ الأمر كما تقول حقاً . ولكن في نفس اللحظة التي نطقت فيها بذلك الهراء تجلت لي الحقيقة .

ـ ماذا تقول ؟

ـ أوه .. هي حقيقة مبهمة وغير مكتملة . ولكنها كانت من الكفاية بحيث جعلتني أسير في تحقيقي إلى النهاية . هل تفهمني أيها الرئيس

لزم مسيو ديبوا الصمت . ولا ريب أن نفس الحقيقة تجلت له عندئذ هو الآخر لأنه تمتم يقول :

ـ إذا لم يكن السارق من المدعوين ولا من الخدم ولا من المفتشين . فلا يبقى إلا ..

ـ نعم أيها الرئيس .. لا يبقى إلا شخص واحد .

ارتجف مسيو ديبوا كما لو انه تلقى ضربة شديدة وقال في صوت ينم عن انفعاله

ـ كلا ان هذا غير معقول

ـ لماذا ؟

ـ لماذا ؟ .. فكر جيداً في الأمر .

ـ ولكن . امض في تفكيرك أيها الرئيس .. وتكلم

ـ ماذا ؟ .. كلا . هذا محال .. لا يمكن أن يكون سبارميينتو شريكاً للوبين

ضحك جانيمار مستهزئاً وقال تماماً . شريك لأرسين لوبين . وبهذا يتضح كل شيء فأثناء الليل . وبينما المفتشون الثلاثة يسهرون في الطابق الأرضي . أو بالأحرى . بينما كانوا نائمين . لأن الكولونيل سبارميينتو ربما دس لهم مخدراً في الشمبانيا . أقول أن الكولونيل أنزل السجاجيد ونقلها إلى الخارج من غرفته . وهي تقع كما تعلم في الطابق الثاني . وتطل على شارع آخر لم يكن يخضع لأية رقابة أو أية حراسة . ما دامت نوافذ الطابقين الأرضي والأول قد سدت .

فكر مسيو ديبوا ثم هز كتفيه وقال هذا محال

ـ لماذا ؟

ـ لأن الكولونيل سبارميينتو ما كان ينتحر لو أنه كان شريكاً للوبين ... خصوصاً بعد أن نجحت السرقة

ـ ومن يقول أنه انتحر ؟

- كيف ؟ ... ألم يجدوا جثته ؟

- أعود فأقول لك أن لوبين لا يمكن ان يتسبب في موت أحد

- ومع ذلك فقد مات سبارميينتو ، وتعرفت زوجته على جثته .

- كنت أتوقع منك أن تقول هذا أيها الرئيس . أنا الآخر أزعجني هذا الأمر جداً ، لأنني رأيت أرسين لوبين أولاً ثم شريكه الكولونل سبارميينتو ثانياً ، وجثته ثالثاً . وكان هذا كثيراً بالنسبة لي .

وأمسك جانيمار ببعض الجرائد وناول إحداها لمسيو ديدوا . وهو يقول

- لعلك تتذكر أنني كنت أتصفح بعض الجرائد عندما قدمت أول مرة .. كنت أبحث إذا لم يكن قد وقع حادث يمكن أن يكون له علاقة بقصتنا هذه ، ويؤكد نظريتي . فتكرم وأقرأ هذا النبأ .

« أبلغنا مراسلنا بحادث غريب وقع في مدينة ليل ، فقد اختفت صباح أمس من معرض الجثث في تلك المدينة جثة رجل مجهول ألقى بنفسه تحت عجلات الترام . ولا يعرف أحد سبب هذا الاختفاء الغريب » .

راح مسيو ديدوا يفكر ثم قال : إذن ؟ .. ماذا تعتقد ؟

- أجاب جانيمار : أنني قدمت من ليل ، والتحقيق الذي قمت به لا يرقى إليه أي شك من هذه الناحية .. اختفت الجثة في نفس الليلة التي أقام فيها الكولونل سبارميينتو حفلته ، ونقلت في سيارة إلى فيل دافرى مباشرة ، وبقيت بجوار شريط السكة الحديد حتى المساء .

قال مسيو ديدوا : بالقرب من النفق ؟

- أجل أيها الرئيس .

- بحيث أن الجثة التي عثروا عليها هي تلك الجثة . وقد ألبست ثياب

- تماماً .

- ولكن لماذا كل تلك الأحداث إذن ؟ لماذا يسرق سجادة في البداية ثم يعيدها ، ثم يسرق السجاجيد الاثنتى عشرة بعد ذلك ؟ ولماذا تلك الحفلة ؟ وتلك الضجة ؟ وكل شيء ؟ أن قصتك غير متماسكة يا جانيمار

- أنها غير متماسكة لأنك توقفت مثلي في منتصف الطريق من فرط غرابتها . ومع ذلك فقد كان لابد لي من الذهاب بعيداً . بعيداً نحو غير المعقول ، والمذهل . ومهما يكن فلم لا ؟ أفلا يتعلق الأمر بأرسين لوبين ؟ ألا يجب أن نتوقع منه كل ما هو غريب وشاذ ؟ ألا يجب أن نواجه أكثر النظريات جنوناً . وعندما أقول أكثرها جنوناً فليست الكلمة صحيحة . وكل ذلك ، على العكس منطقي وبسيط جداً . شركاء . ولماذا ؟ مادام من الأسهل والطبيعي أن يتصرف بنفسه . شخصياً . بيديه هو بالذات وبوسائله فحسب

صاح مسيو ديدو في ذعر كان يتزايد مع كل لحظة . ماذا تقول ؟ .. ماذا تقول ؟ .. ماذا تقول ؟

ضحك جانيمار مستهزئاً مرة أخرى وقال : أن الأمر يذهلك أيها الرئيس ... كما حدث معي تماماً كنت مخبولاً من فرط الدهشة . ومع ذلك فقد مضيت فيها إلى النهاية .. فانني أعرف لوبين . وأعرف ما يمكن أن يكون جديراً به

وعاد مسيو ديدوا يقول : هذا مستحيل . مستحيل

- بل على العكس ممكن أيها الرئيس . ومنطقي تماماً . وواضح كل

الوضوح . أنه تجسيد بسيط لرجل واحد . وأن طفلاً ليحل طلاسم هذه القضية فى دقيقه باستبعاد بسيط . لنستبعد جثة الميت فيبقى أمامنا سبارميينتو ولوبين . ولنستبعد سبارميينتو ..

تمتم رئيس البوليس : فيبقى أرسين لوبين .

ـ نعم . يبقى لوبين وحده . لوبين وقد عاد من بين الأموات ... لوبين الذى تحول قبل ذلك بستة شهور إلى الكولونل سبارميينتو . وأثناء وجوده فى بريتانى يعلم بنبأ العثور على الاثنتى عشرة سجادة فيشتريها ، ثم يدبر سرقة أجمل واحدة منها لالفات النظر إليه . ولكى يبعد عنه الأنظار يدبر سبارميينتو تلك الحفلة بصورة مروعة ويروع مدعويه . وعندما يتم الاعداد لكل ما يريد يبدأ العمل ويسرق باسم لوبين ويختفى سبارميينتو ، ضحية لوبين ، ويموت من غير أن ترقى إليه الشبهات ، ومن غير أن يشك فيه أحد ، تاركا خلفه زوجة لكى تجنى مكاسب العملية ...

وهنا أمسك جانيمار عن الكلام ، ونظر إلى رئيسه كأنه يستدعى انتباهه لأهمية ما سوف يقول ثم استطرد :

ـ تاركا خلفه أرملة شديدة الحزن .

ـ مدام سبارميينتو ؟ ... هل تعتقد حقاً ؟ .

قال : أن لوبين لا يدبر عملية كهذه دون أن يكون فى نهايتها . مكاسب كبيرة .

ـ ولكن يبدو لى أن المكاسب كان يمكن تحقيقها ببيع السجاجيد .. فى أمريكا أو فى أى بلد آخر .

ـ هذا صحيح . ولكن سبارميينتو كان يمكنه أن يبيعها بنفسه . وإذن

فهناك شىء آخر

ـ شىء آخر ؟

ـ نعم ، أيها الرئيس . فلا تنس أن الكولونل سبارميينتو كان ضحية سرقة كبيرة ، وأنه إذا كان قد مات فان أرملته على قيد الحياة .. وأرملته هى التى ستقبض إذن ..

ـ تقبض ماذا ؟

ـ ماذا ؟ .. ما تستحقه طبعاً .. قيمة التامين .

دهش مسيو ديبوا . بدت له القضية فجأة بكل ما فيها من معنى حقيقى. وقال :

ـ هذا صحيح .. هذا صحيح .. فقد أمن الكولونل على سجاجيده .

ـ طبعاً ... و بمبلغ كبير .

ـ كم ؟

ـ ثمانمائة ألف فرنك .. موزعة على خمس شركات مختلفة .

ـ وهل حصلت مدام سبارميينتو كل هذه المبالغ ؟

ـ أنها حصلت على مائة وخمسين ألف فرنك أمس ومائتى ألف فرنك اليوم، اثناء غيابى . أما المبالغ الأخرى فيجب أن تحصلها خلال هذا الاسبوع .

ـ ولكن هذا فظيع .. كان يجب ...

ـ ماذا أيها الرئيس . انهما انتهزا فرصة غيابى لتحصيل هذه المبالغ ، وعند عودتى التقيت فجأة بمدير إحدى شركات التامين، أعرفه منذ مدة

طويلة . وبحديث معه عرفت الأمر

لزم مدير البوليس الصمت لحظة طويلة وهو مشدوه ثم قال

ـ يا له من رجل على كل حال !

هز جانيمار رأسه وقال : نعم ، أيها الرئيس . أنه وغد .. ولكن يجب أن اعترف بأنه رجل شديد المراس . فلكى تفلح خطته كان لابد من أن يناضل أثناء أربعة أو خمسة أسابيع ، وما كان لأحد أن يشتبه أبداً فى الكولونل سبارميينتو . كان يجب أن تتركز كل الأحقاد وكل الابحاث على لوبين وحده، وأن نجد أنفسنا فى نهاية الأمر أمام أرملة محزونة وهى أديث العنقاء ، فتاة الاسطورة ، والمخلوقة الرقيقة التى يسعد رجال التأمين أن يضعوا بين يديها ما يخفف حزنها ، وهذا ما حدث .

وكان الرجلان ، كل منهما بجوار الآخر ، ينظر أن إلى بعضهما البعض ملياً ، وقال الرئيس

ـ ومن هى تلك المرأة ؟

ـ سونيا كريشنوف .

ـ سونيا كريشنوف ؟

ـ نعم . تلك الروسية التى اعتقلتها فى العام الماضى فى قضية التاج المسروق والتى ساعدها لوبين على الهرب .

ـ هل أنت واثق ؟

ـ كل الثقة . وقد حيرنى لوبين إلى درجة أننى أهملت الاهتمام بها هى . ولكن . عندما عرفت الدور الذى تقوم به تذكرت أنها سونيا . وقد تنكرت فى صورة انجليزية .. سونيا التى لا تتردد فى مواجهة الموت فى سبيل لوبين

وافقه مسيو ديدوا قائلا . انه لصيد ثمين يا جانيمار

ـ بل لدى ما هو افضل لتقديمه إليك

ـ وما هو ؟

ـ مرضعة لوبين العجوز .

ـ فيكتوار ؟

ـ أنها هنا منذ أن قامت مدام سبارميينتو بدور الأرملة .. أنها الطاهية .

قال مسيو ديدوا . أوه . أوه .. لك تهانئى يا جانيمار .

ـ ما زال لدى ما هو أفضل أيها الرئيس .

أجفل مسيو ديدوا . وكانت يد المفتش العام ترتعش فى يده .

ـ ماذا تعنى يا جانيمار ؟

ـ أتظن إيها الرئيس اننى كنت أزعجك فى هذه الساعة لمثل هذا الصيد سونيا وفيكتوار ... كان فى امكانى أن انتظر

تمتم مسيو ديدوا وقد ادرك أخيراً سبب اضطراب المفتش العام

ـ وإذن ؟

ـ ألم تخمن بعد أيها الرئيس ؟

ـ هل هو هنا ؟

ـ أنه هنا .

ـ مختبئاً ؟

ـ ابداً ، وانما متنكر فحسب ... أنه الخادم .

لم يبد مسيو ديدوا أية حركة هذه المرة ، ولم ينطق . فإن شجاعة لوبين أذهلته . وضحك جانيمار ساخراً وقال

ـ لقد زاد الثالوث المقدس بشخص رابع . كان يمكن أن تقوم أنت أيها العنقاء بأخطاء ، وكان لابد من وجود الرئيس ، وقد جرؤ وعاد ، منذ ثلاثة أسابيع وهو يحضر تحقيقاتي ويراقب تقدمها في هدوء .

ـ هل عرفته ؟

ـ لا أحد يعرف لوبين . أن له دراية تامة بفنون الماكياج ، ويتحول من شخصية إلى أخرى بحيث لا يمكن لأحد أن يعرفه . ثم أنه ما كان ليخطر لي أبداً .. ولكن هذه الليلة ، وبينما كنت أراقب سونيا وأنا مختبيء تحت السلم سمعت فيكتوار تخاطب الخادم وتدعوه « صغيري » وسطع الضوء في ذهني على الفور فهي تدعو لوبين هكذا دائماً .

بدا مسيو ديدوا ومبلبل الخاطر بدوره هو الآخر لوجود العدو الذي طالما طارده ولم يستطع القاء القبض عليه أبداً . وقال في صوت أصم

ـ أنه وقع في أيدينا أخيراً .. ولا يستطيع أن يهرب .

ـ كلا يا سيدي .. أنه لن يستطيع ، لا هو ولا المرأتان .

ـ وأين هم ؟

ـ سونيا وفيكتوار في الطابق الثاني أما لوبين ففي الطابق الثالث .

قال مسيو ديدوا وقد أحس بالقلق فجأة : ولكن ، ألم يمرر من نوافذ تلك الغرف السجاجيد عندما اختفت ؟

ـ نعم .

ـ إذا كان الأمر كذلك فيمكن للوبين أن يهرب منها أيضاً ما دامت هذه النوافذ تفضي إلى شارع دوفرينوى

ـ طبعاً أيها الرئيس ولكنني اتخذت احتياطاتي . فبمجرد قدومك أرسلت أربعة من رجالنا تحت نافذة شارع دوفرينوى وأصدرت إليهم أوامر قاطعة . إطلاق الرصاص على أي أحد يظهر في النوافذ ويحاول الهرب ، الرصاصة الأولى في الهواء ، والثانية في الصميم

ـ إذن فقد فكرت في كل شيء يا جانيمار . وما أن يطلع النهار

ـ وهل يجب أن ننتظر أيها الرئيس ؟ هل يجب مراعاة الأصول مع مثل هؤلاء الأوغاد ؟ ... وماذا لو استطاع الهرب أثناء ذلك . ماذا لو لجأ إلى إحدى ألاعيبه التي لا نعرفها ، كلا . أنه وقع في أيدينا ، ولابد أن نعتقله الآن فوراً

وخرج جانيمار وهو ساخط ونافذ الصبر ، واجتاز الحديقة وأدخل ستة من رجاله ثم عاد وقال

ـ قضي الأمر أيها الرئيس . وقد أصدرت الأمر إلى الرجال الذين يراقبون شارع دوفرينوى بإشهار مسدساتهم وتصويبها نحو النوافذ . هيا بنا .

وكانت تلك التحركات قد أحدثت ضجة ما ، لم تفت عن سكان البيت بالطبع ، وأحس مسيو ديدوا بأنه لا مناص من أن يبدأ العمل فقال

ـ هلم بنا .

وصعد الرجال الثمانية السلم ومسدساتهم في أيديهم دون ابداء أي حرص في لهفتهم على مفاجأة لوبين قبل أن يسعفه الوقت لتدبير دفاعه .

وصاح جانيمار وهو يندفع على باب الغرفة التى تقيم فيها مدام سيارميينتو

ـ افتحوا .

ودفع أحد رجال الشرطة الباب وحطمه .

ولكنهم لم يجدوا أحداً في الغرفة . ولم يكن هناك أحد كذلك فى غرفة فيكتوار . وصاح جانيمار

ـ أنهما فوق . لقد انضمتا إلى لوبين فى غرفته فتوخوا الحذر .

وصعد الرجال الثمانية إلى الطابق الثالث وكم كانت دهشة جانيمار عندما وجد باب الغرفة مفتوحاً على مصرعيه والغرفة شاغرة .

وكانت جميع الغرف الأخرى شاغرة هى الأخرى فصاح

ـ يا للشيطان ! ... أين ذهبوا ؟

ولكن الرئيس ناداه ، وكان قد هبط إلى الطابق الثاني ولاحظ أن أحدى النوافذ لم تكن محكمة الغلق وإنما مردودة فحسب . وقال يخاطبه

ـ ها هو الطريق الذى سلكوه .. نفس طريق السجاجيد . لقد قلت لك ذلك... شارع دوفرينوى .

قال جانيمار وهو يتميز غضباً : ولكن بالشارع حراسة .. ولو أنهم هربوا من هذا الطريق لأطلق رجالنا الرصاص عليهم .

ـ ذلك انهم هربوا قبل حراسة الشارع .

ـ كان الثلاثة فى غرفهم عندما اتصلت بك بالتليفون .

ـ هربوا بينما كنت تنتظرنى بجوار الحديقة .

ـ ولكن كيف ولماذا ؟ لم يكن هناك اى سبب يحدوهم إلى الهرب اليوم بدلا من الغد او بدلا من الاسبوع المقبل بعد ان يحصلوا جميع المبالغ المؤمن عليها

بل كان هناك سبباً . عرفه جانيمار عندما رأى على إحدى المناضد رسالة باسمه . وعندما فضها وعرف مضمونها

« أنا الموقع أدناه ، ارسين لوبين ، اللص الشـــريف ، والكولونل سيارميينتو سابقاً ، والخادم سابقاً ، والجثة سابقاً . أشهد بأن المدعو جانيمار أثبت اثناء إقامته فى هذا البيت بأنه يتمتع بأحسن المزايا ، وبسلوك سليم وبأنه مخلص ويقظ ، وأنه أفسد جزءاً من خططى بدون مساعدة من أحد . وانقذ شركات التامين من دفع أربعمائة وخمسين الف فرنك . واننى اهنئه على ذلك . والتمس له العذر طواعية لأنه لم يتوقع أن التليفون الموجود بالطابق الأرضى متصل بالتليفون الموجود فى غرفة سونيا كريشنوف . وأنه باتصاله برئيس البوليس اتصل بى فى نفس الوقت لكى أبادر بالفرار بأسرع ما يمكن . وهذه غلطة طفيفة لا يمكن أن تعتم بريق خدماته أو أن تقلل من قيمة انتصاره .

ولهذا أرجو أن يتفضل بقبول اعجابى الشديد بمقدرته وبخالص حبى ومودتى

ارسين لوبين



٤ سر المصباح

جلس شرلوك هولمز وواطسون ، كل منهما على جانب من الموقد ، يستدفئان وكان غليون هولمز قد انطفأ ، فأفرغ منه الرماد ثم حشاه ثانية وأشعله ، وجمع حول ركبتيه طرفي الروب دي شامبر ، وأخذ يطلق سحابات طويلة من الدخان نحو السقف .

وراح واطسون ينظر إليه كما ينظر الكلب الوفي إلى صاحبه ، وهو يتساءل هل يقطع الاستاذ حبل الصمت ويعترف له بما يجول بخاطره من أفكار ، وإذ رآه يلزم الصمت نهض واقترب من النافذة . وكان الشارع الحزين يمتد بين البيوت الكئيبة ، تحت سماء يهطل منها مطر غزير وعنيف ، ومرت مركبة ، ثم أخرى ، ولم يلبث أن صاح يقول :

ـ آه ... ها هو ساعي البريد .

وما هي الا لحظة حتى دخل الساعي خلف الخادم وقال :

ـ رسالتان مسجلتان يا سيدي . هل لك أن توقع هنا .

وقع هولمز باستلام الرسالتين ، وشيع الساعي حتى الباب . ثم عاد

وهو يفقل إحدى الرسالتين وقال وهو يخاطب واطسون :

ـ هذه الرسالة تأتينا بقضية هامة ، كما كنت تنشد ، فاقرأ .

وقرأ واطسون ما يلي :

« سيدي

أرسل إليك هذه ، انشد معونتك ، فقد رحت ضحية سرقة هامة ، ولم تسفر الأبحاث التي قمنا بها حتى الآن عن أية نتيجة .

وأرسل إليك بنفس البريد بضع جرائد تناولت هذه القضية ، فإذا شئت الاضطلاع بها فسأضع بيتي تحت تصرفك ، وأرجوك أن تحدد بنفسك المبلغ الذي تراه كافياً لنفقات سفرك .

وأرجو أن تتكرم بابلاغي ببرقية ، وإليك خالص تحياتي »

البارون فيكتور دامبرفيل

١٨ شارع موريللو ٥٠ »

وقال هولمز . آه . هذا عظيم .. رحلة إلى باريس . ولم لا ؟ . فمنذ نضالي المشهور مع أرسين لوبين لم تواتني الفرصة للعودة إليها ، وسوف يروق لي أن أرى عاصمة الدنيا في ظروف أحسن .

ومزق الشيك إلى أربع قطع . وبينما كان واطسون يصف باريس بأقبح الصفات ، خاصة وأن ذراعه كان لا يزال متوتراً ولم يعد بعد إلى ليونته العادية ، فضم الرسالة الثانية ، وما كاد يلقى عليها نظرة حتى بدرت منه كلمة سخط ، وعبست أساريره ، وطوح بها إلى الأرض بعد أن فركها في يده وكورها ، فصاح واطسون مفزوعاً :

- ماذا ... ما الخبر ؟

والتقط الرسالة المكورة ، وبسطها وقرأها والدهشة تستبد به :

« استاذى العزيز :

أنت تعرف مدى اعجابى واهتمامى بك ، ولهذا أرجوك ألا تقبل المهمة التى يلتمسون مساعدتك فيها ، ذلك لأن تدخلك سيتسبب فى أضرار كبيرة ، ولن تكون نتيجة الجهد الذى ستبذله إلا الفشل وستضطر أنت نفسك أن تجهر بفشلك علانية .

« وانى إذا أتمنى أن أجنبك هذه المهانة أتوسل إليك ، باسم صداقتنا أن تلزم بيتك وأن تقبع بجوار النار فى هدوء .

« تحياتى الخالصة لك أيها الاستاذ العزيز ولمستر واطسون .

ارسين لوبين »

هتف واطسون مشدوها : ارسين لوبين !

راح هولمز يهوى بقبضته على المنضدة وهو يقول :

- آه .. أن هذا الحيوان بدأ يضايقنى ، وهو يسخر منى ، كما لو كنت طفلاً . أجهر بفشلى علانية . ألم أرغمه على إعادة الماسة الزرقاء ؟

قال واطسون : أنه يخاف .

- أنك أحمق .. أن ارسين لوبين لا يخاف أبداً ، والدليل على ذلك أنه يتحدانى .

- ولكن كيف عرف بأمر الرسالة التى أرسلها إلينا البارون دامبرفيل ؟

- وانى لى أن أعلم .. أنك تلقى أسئلة حمقاء يا عزيزى .

- خطر لى . تصورت ..

- خطر لك أننى ساحر !

- كلا . ولكننى رأيتك تأتى بمعجزات .

- لا أحد يأتى بمعجزات .. لا أنا ولا غيرى . أننى أفكر وأستنتج ، واستدل . ولكننى لا أخمن ، فلا يخمن إلا الأغبياء .

تظاهر واطسون بتواضع كلب مغلوب على أمره ، وبذل جهده لكى لا يكون غبياً ، ولكى لا يخمن لماذا راح هولمز يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً ، بخطوات كبيرة غاضبة . ولكن عندما دق هولمز الجرس يستدعى خادمه وعندما أمره أن يعد حقيبته لم يسعه إلا أن يسأله .

- هل أنت ذاهب إلى باريس يا هولمز ؟

- يحتمل .

- وأنت ذاهب رداً على تحدى لوبين أكثر منه خدمة للبارون دامبرفيل .

- يحتمل .

- سأصحبك يا هولمز .

توقف هولمز وقال : آه ... آه ... ألا تخشى أن يصيب ذراعك اليسرى ما أصاب ذراعك اليمنى ؟

- وماذا يمكن أن يقع لى وأنت معى ؟

- حسناً . أنت شجاع ، وسوف نثبت لذلك السيد أنه ربما اخطأ بتحديه لى بكل هذه الوقاحة . هيا يا واطسون لكى نلحق بأول قطار

- ألن تنتظر الجرائد التى قال البارون أنه أرسلها إليك .

- وما الجدوى من ذلك ؟

- هل أرسل إليه برقية ؟

- كلا . فان لوبين سيعرف عندئذ أننى قادم ، ولا أريده أن يعرف ذلك . يجب أن نتوخى كل الحرص هذه المرة .

هبط الصديقان فى ميناء دوفر بعد ظهر اليوم نفسه . وكان الجو صحواً أثناء الرحلة فى القطار السريع من كاليه إلى باريس التى استغرقت ثلاث ساعات قضاها هولمز فى نوم عميق . واستيقظ سعيداً ويقظاً ، فإن توقع صراع جديد مع ارسين لوبين جعله يشعر بمتعة غريبة . وراح يفرك يديه بفرحة رجل يستعد لكي ينهض من مسرات كثيرة .

وخرج من المحطة وكله نشاط ، بعد أن ارتدى المعطف الذى يميزه . وكان الزحام شديداً ، وقد راقه ذلك وقال :

- هذا أفضل يا واطسون ، فلن نجازف بأن يعرفنا أحد وسط هذا الجمع من الناس .

ولكنه ما كاد يتقدم بضع خطوات حتى سمع من يقول له : مستر هولمز، أليس كذلك ؟

توقف مشدوهاً بعض الشيء ، فمن ذلك الشيطان الذى يشير إليه باسمه؟ ورأى بجواره إمرأة شابة ترتدى ثوباً بسيطاً مميزاً ، وجهها الجميل به مسحة من القلق والحزن . وعادت تقول :

- أنت مستر هولمز طبعاً .

قال فى صوت خشن : ماذا تريدين ؟

- اصغ إلى يا سيدى ، أن الأمر خطير جداً ، وأنا أعرف أنك ذاهب إلى

شارع موريللو ، رقم ١٨ . ولكن لا يجب أن تمضى إليه . أؤكد لك أنك سوف تندم على ذلك ، ولا تظن أن لى أية مصلحة وإنما اتكلم بحق وبكل صراحة .

حاول أن يقصيها عن طريقه ، ولكنها راحت تقول فى اصرار :

- أرجوك يا سيدى . لا تكن صلب الرأى . آه ، لو أعرف كيف أقنعك . انظر إلى عينى .. أنهما ينطقان بالصراحة ، ويقولان الحقيقة .

وقدمت إليه عينيها .. عينين رزينتين ، صافيتين كأنهما تعكسان روحها فى بالذات . وهز واطسون رأسه وقال :

- يبدو أن الآنسة صادقة .

قالت : بكل تأكيد ، ويجب أن تثق بى .

أجاب واطسون : اننى أثق بك يا آنسة .

- أوه ما أسعدنى إذن . وصديقك أيضاً ، أليس كذلك ؟ أوه . إننى متأكدة. سيكون كل شيء على ما يرام . وأنها لفكرة جميلة تلك التى خطرت لى . اصغ إلى يا سيدى . هناك قطار سينطلق إلى كاليه بعد عشرين دقيقة ، سوف تستقله إذن . تعالى معى . الطريق من هنا . وليس أمامك الكثير من الوقت .

وحاولت أن تجر هولمز ، ولكنه أمسكها من ذراعها ، وقال فى رفق بقدر ما استطاع :

- معذرة يا آنسة . لا يمكننى تلبية رغبتك ، فاننى لا أتخلى أبداً عن مهمة تناط بى .

- أتوسل إليك . أتوسل إليك .. آه ، لو تستطيع أن تفهم .

بيد أنه تجاوزها ، وابتعد مسرعاً . وقال واطسون يخاطبها :

- تذرعى بالأمل . سيمضى حتى نهاية المهمة . وهو لم يعرف الفشل فى حياته .

وراح يجرى لكى يلحق بهولمز .

******

شرلوك هولمز وأرسين لوبين

ظهرت هذه الحروف الكبيرة ، وقابلتهما عند أول خطواتهما . فقد سار عدد من الرجال ، بعضهم خلف بعض وفى أيديهم عصى غليظة محددة راحوا يدقون بها على الأرض فى رتابه ، وعلى ظهورهم لافتات ضخمة هذا نصها بالترتيب :

« مباراة بين شرلوك هولمز وارسين لوبين . وصول البطل الانجليزى . المخبر السرى الكبير للكشف عن غموض لغز شارع موريللو . اقرأ التفاصيل فى جريدة ايكو دى فرانس . »

تقدم شرلوك إلى أحد هؤلاء الرجال وفى نيته أن يمسك قبلا يديه ويحطمه تحطيماً هو واللوحة التى فى يده . ولكن الجمهور كان قد تجمع حول هذه اللوحة فكظم غيظه وسأل الرجل قائلاً :

- متى طلبوا منك القيام بهذه العملية ؟

- صباح اليوم .

- ومتى بدأت عملك ؟

- منذ ساعة .

- وهل كانت اللوحات جاهزة .

- آه ، نعم . عندما ذهبت هذا الصباح إلى الوكالة كانت جاهزة .

إذن توقع ارسين لوبين أن هولمز سيقبل الصراع ، بل الأكثر من هذا ، أن الخطاب الذى أرسله إليه يثبت أنه يتمنى هذا الصراع وأنه ينوى منازلته مرة أخرى ، فلماذا ، وأى سبب يدفعه إلى هذا النضال .

بدا التردد على هولمز لحظة . لابد حقاً أن لوبين واثق من الفوز مادام قد أبدى مثل هذه الوقاحة . أن إسراعه فى القدوم هكذا ، عند أول نداء ، يعنى أنه قد وقع فعلاً فى الفخ . ومع ذلك فقد هتف يقول فى طفرة من النشاط :

- هلم بنا يا واطسون . أيها السائق ، امض بنا إلى رقم ١٤ ، بشارع موريللو .

ووثب إلى المركبة وقد انتفخت عروقه ، وانضمت قبضتاه ، كما لو كان ماضياً إلى حلبة الملاكمة .

***

وبشارع موريللو بنايات فخمة خاصة ، تطل واجهاتها على حديقة مونسو ، والبيت رقم ١٨ واحد من تلك المبانى الجميلة ، ويقيم فيه البارون مو وزوجته وأبنتاه ، وقد أثثه وفرشه بأفخم أنواع الأثاث ، وبطريقة فنية تدل على ذوقه الرفيع وساعدته على ذلك ثروته الطائلة ، لأنه يعتبر من أصحاب الملايين . ويتقدم البيت فناء فسيح ، وتحف به من اليمين واليسار ملحقات الخدمة ، وفى الخلف حديقة تشارك بأغصانها حديقة مونسو .

وبعد أن دقا الجرس ، اجتاز الانجليزيان الفناء ، واستقبلهما خادم تقدمهما إلى صالون صغير ، وجلسا وألقيا نظرة فاحصة على الأشياء

الثمينة التي بالمكان . وقال واطسون :

ـ أشياء جميلة ، تدل على الذوق وحب الجمال . ويمكن أن نستنتج أن الذين اتسع وقتهم لجمع هذه النفائس أناس متقدمون فى العمر ... ربما فى الخمسين من أعمارهم .

ولم يزد فقد انفتح الباب ، ودخل مسيو دامبرنال ، تتبعه زوجته ، وخلافاً لاستنتاج واطسون ، كان كل منهما فى مقتبل الشباب ، تتسم هيئتهما بالاناقة والدقة ، وغالباً فى تقديم الاعتذارات :

ـ أنها لمكرمة كبيرة منكما . مثل هذا الازعاج . أننا سعيدان تقريباً . لازعاجنا إياكما مادام هذا الازعاج قد تسبب فى سرورنا . ولكن الوقت من ذهب ، ووقتك أنت بالذات يا مستر هولمز . ولهذا سأمضى إلى الغاية قدماً . ما رأيك فى هذه القضية ، وهل هناك أمل فى انجازها على ما يرام ؟

ـ ولكن يجب أن أعرف تفاصيلها أولاً .

ـ ألم تعرفها ؟

ـ كلا . وأرجوك أن تشرح لى الأمر بالتفصيل ، ومن غير أى سهو .

ـ الأمر يتعلق بسرقة .

ـ ومتى وقعت ؟

أجاب البارون : يوم السبت الماضى .

ـ منذ ستة أيام إذن .. أنا مصغ إليك الآن .

ـ يجب أن أقول لك أولاً أننى أنا وزوجتى ، رغم اننا نعيش الحياة التى يتطلبها مركزنا الاجتماعى ، فاننا لا نخرج إلا قليلا . تربية البنتين وبعض

الحفلات والاشراف على تجميل قصرنا . هذه هى حياتنا . وكل أمسياتنا أو أكثرها تقريباً نقضيها هنا ، فى هذه الغرفة ، وهى الصالون الخاص بزوجتى ، حيث جمعنا بعض التحف . وعليه ففى نحو الساعة الحادية عشرة من مساء يوم السبت الماضى أطفأت النور ، ومضيت وزوجتى كما هى العادة إلى غرفتنا .

ـ وتقع ؟ .

ـ بجوار هذه الغرفة .. هذا الباب الذى تراه . وفى اليوم التالى ، أى يوم الأحد ، استيقظت فى ساعة مبكرة . ولما كانت زوجتى ، سوزان ، لا تزال نائمة فقد جئت إلى هذه الغرفة ، بقدر ما أمكننى من هدوء ، حتى لا أوقظها . ودهشت إذ وجدت هذه النافذة مفتوحة ، مع أننا تركناها بالأمس مغلقة .

ـ قد يكون أحد الخدم ؟

ـ لا أحد يدخل هنا قبل أن ندق الجرس ، ثم أننى أحرص دائماً على أن أضع المزلاج خلف هذا الباب الثانى الذى يتصل بالردهة . وهذا يدل على أن النافذة فتحت إذن من الخارج . ولم ألبث أن وجدت الدليل على ذلك ، فان لوح الزجاج الثانى للمصراع الأيمن قد قطع بجوار الترباس . والنافذة كما يمكنك أن ترى تؤدى إلى بقعة منبسطة تحيط بها شرفة حجرية ، ونحن هنا فى الطابق الأرضى ، وترى منه الحديقة التى تمتد خلف البيت ، والباب الذى يفصلها عن حديقة مونسو . ومن المؤكد إذن أن الرجل أقبل من حديقة مونسو ، واجتاز الباب بواسطة سلم ، وصعد إلى الشرفة . وقد وجدنا ، تحت الباب آثار السلم ، ونفس الآثار موجودة تحت الشرفة . ثم أن الشرفة نفسها بها خدشان أحدثهما قائما السلم .

- وحديقة مونسو ؟ .. ألا تغلق ليلاً ؟

- كلا . ولكن هناك بيت جارى بناؤه ، فى رقم ١٤ ، ومن السهل الدخول منه .

فكر شرلوك هولمز بضع لحظات ثم قال :

- لنتكلم عن السرقة الآن . وقعت إذن فى الغرفة التى نحن فيها الآن ؟

- أجل . كان بين لوحة هذه العذراء التى يرجع عهدها إلى القرن الثامن عشر وهذا التمثال الفضى مصباح صغير أثرى ، وقد اختفى .

- وهل هذا كل شىء ؟

- نعم .

- وهل لهذا المصباح قيمة ما ؟

- أنه من تلك المصابيح النحاسية التى كانت تستخدم فيما سبق . له ساق وبه وعاء لوضع الزيت ، وبذلك الوعاء بضعة ثقوب خاصة للفتائل .

- صفوة القول ، ليس له أية قيمة تذكر .

- ليست له قيمة كبيرة فى الواقع . ولكن كان به مخبأ اعتدنا أن نخفى فيه جوهرة نفيسة قديمة .. تحفه ذهبية مرصعة بالياقوت والزمرد ولها قيمة كبيرة جداً .

- ولم هذه العادة ؟

- الحق أننى لا أعرف ماذا أقول يا سيدى . لعل استخدامنا لهذا المخبأ كان مجرد لهو .

- ألم يكن أحد يعرف ذلك ؟

- كلا .

اعترض هولمز : فيما عدا الذى سرق التحفه طبعاً ، وإلا ما كان ليزعج نفسه ليسرق المصباح .

- طبعاً . ولكن كيف تمكن من معرفة ذلك المخبأ ، ما دامت الصدفة وحدها هى التى كشفت لنا عن كيفية استخدامه .

- ربما كشفته نفس الصدفة لأحد الخدم ، أو لأحد المترددين على البيت . لكن لنستمر . هل أبلغت البوليس ؟

- بكل تأكيد . وقد قاموا بالتحقيق ، كما قام مخبرو الصحف المهتمون بمثل هذا النوع من القضايا بالتحقيق هم الآخرون . ولكن يبدو ، كما كتبت لك ، أن القضية معقدة ولا يمكن حلها على الأطلاق .

نهض هولمز ، وسار نحو النافذة . وفحصها ، كما فحص البقعة المبسطة والشرفة ، واستخدم عدسته المكبرة فى فحص الخدشين ، وطلب من مستر دامرفيل أن يمضى به إلى الحديقة .

وفى الخارج ، جلس على مقعد من الخيزران ، ونظر إلى سطح البيت وهو يفكر بعمق ثم اتجه فجأة نحو صندوقين من الخشب استخدما فى تغطية آثار السلم ، ورفعهما وجثا على ركبتيه ، وفحص الجدران . وقام ببعض القياسات ، ونفس العملية بجوار البوابة .

وكان هذا كل شىء .

******

وعندما عاد إلى الصالون الصغير لزم هولمز الصمت بضع دقائق ثم قال :

- منذ أن بدأت قصتك يا سيدى البارون دهشت من بساطة العملية . فوضع سلم ، وقطع لوح من الزجاج واختيار شيء بالذات وسرقته ثم المضي بكل بساطة ، أن الأمور لا تجرى بمثل هذه السهولة .

- والمعنى ؟

- المعنى أن سرقة المصباح قد تمت تحت إشراف ارسين لوبين هتف البارون مشدوهاً : أرسين لوبين ؟

- ولكنها تمت بعيداً عنه ، ومن غير أن يدخل هذا البيت . لعل أحد الخدم هبط من غرفته مستخدماً ماسورة رأيتها فى الحديقة .

- ولكن علام تستند فى قولك هذا ؟

- ما كان أرسين لوبين ليخرج من هذه الغرفة صفر اليدين .

- صفر اليدين ؟ . والمصباح ؟

- لو أنه أخذ المصباح لأخذ هذا التمثال المرصع بالماس ، أو هذا العقد من الحجر الكريم ، فلم يكن أمامه إلا أن يمد يديه . وإذا لم يكن قد فعل ذلك فذلك لأنه لم يستطع .

- والآثار التى وجدناها ؟

- إن هى إلا خدعة حتى لا نفطن إلى الحقيقة .

- والخدشان فوق الشرفة ؟

- خدعة هى أخرى ، أحدثهما ورق الصنفرة ، وإليك بعض ذرات الصنفرة، وجدتها فوق الأرض .

- والآثار التى تخلفت عن قائما السلم .

- خدعة هى أيضاً ، فبفحص الثقبين فى أسفل البقعة المنبسطة ، والثقبين الآخرين بجوار البوابة نجدهما متشابهين ، ولكنهما غير متساويين ، فالمسافة بين الثقبين الأولين ٢٢ سنتيمترا ، والأخرى ، بين الثقبين الآخرين ٢٨ سنتيمتراً ، وهذا دليل على أنهما أحدثا بواسطة قطعة مستديرة من الخشب .

- أن أفضل برهان على ما تقول هو العثور على هذه القطعة الخشبية .

قال هولمز : هاهى .. أننى وجدتها فى الحديقة تحت أحد أحواض الزهور .

***

لم يسع البارون إلا الاعتراف ببراهين هولمز ، فان الانجليزى لم يأت إلى البيت إلا منذ أربعين دقيقة ، ومع ذلك فقد قوض كل الأدلة والحقائق الظاهرة ، وبرزت حقائق الظاهرة ، وبرزت حقائق أخرى مبنية على أسس أخرى سليمة ، وهى استنتاجات شرلوك هولمز . وقالت البارونة :

- إن الاتهام الذى توجهه إلى خدمنا خطير يا سيدى . فجميعهم من الخدم القدامى المخلصين ، ولا يمكن لأحد منهم أن يفكر فى خيانتنا .

- إذا لم يكن بينهم من يخونكم فبماذا تفسرين هذا الخطاب الذى جاءنى فى نفس اليوم الذى كتبتم إلى فيه .

وسط البارونة الخطاب الذى أرسله إليه أرسين لوبين ، فقالت مشدوهة :

- أرسين لوبين ... وكيف عرف ؟

- ألم تتكلما عن خطابكما هذا أمام أحد ؟

قال البارون : أبداً . إنما هى فكرة خطرت لنا معاً فى نفس الوقت .

ونحن على المائدة .

ـ أمام الخدم ؟

ـ لم يكن هناك غير بنتينا و . ولكن لا .. كانت صوفى وهنرييت قد غادرتا المائدة . أليس كذلك يا سوزان ؟

فكرت مدام دامبرفال لحظة ثم قالت فى توكيد :

ـ هذا صحيح .. لقد انضمتا إلى الآنسة .

سألها هولمز : الآنسة ؟

ـ المربية . الآنسة أليس ديمون ..

ـ ألا تتناول هذه الآنسة وجباتها معكم ؟

ـ كلا . فهى تتناولها وحدها فى غرفتها .

قال واطسون : ومن الذى ألقى بالخطاب المرسل لصديقى فى صندوق البريد ؟

أجاب البارون : خادمنا دومينيك ، وهو فى خدمتنا منذ عشرين سنة ، وأى بحث فى هذه الناحية لن تكون له نتيجة .

وإذا انتهى هولمز من تحقيقه المبدئى استأذن فى الانصراف .

وبعد ساعة ، رأى أثناء الطعام صوفى وهنرييت ، ابنتا دامبرفيل ، وهما بنتان جميلتان ، فى الثامنة والسادسة من عمريهما . وتحدثوا قليلا . ورد هولمز على مجاملات البارون وزوجته فى شىء من التجهم ، بحيث صمما على التزام الصمت . وقدمت القهوة . واحتسى هولمز قهوته ونهض .

وفى هذه اللحظة دخل خادم ومعه نص رسالة برقية باسم هولمز ،

نتطفها وقرأها .

« أرسل إليك معبراً عن إعجابى الشديد ، فالنتائج التى حصلت عليها فى هذا الوقت القصير مذهلة . وقد أثارت دهشتى حقاً .

ارسين لوبين »

وبدرت من هولمز حركة تدل على الضيق ، وعرض البرقية على البارون :

ـ لعلك تعتقد الآن يا سيدى أن لجدرانك عيوناً وآذاناً .

تمتم دامبرفال فى ذهول : إننى لا أفهم شيئاً .

ـ ولا أنا . ولكن الذى أفهمه هو أن ما من حركة تقع هنا إلا ويراها هو كذلك ، ولا كلمة إلا ويسمعها أيضاً .

***

نام واطسون فى تلك الليلة لا يشغل باله شىء ، شأن الرجل الذى قام بواجبه ولم يعد هناك ما شغله إلا الاستغراق فى النوم .

ولهذا سرعان ما راح فى النوم ، ورأى أحلاما سعيدة ، كان يطارد فيها لوبين هو وحده ، ومستعد لالقاء القبض عليه . وأحس بشخص يتحسس فراشه فأمسك بمسدسه ، وكان قد وضعه تحت الوسادة ، وقال :

ـ مكانك يا لوبين .. لا تتحرك وإلا أطلقت الرصاص .

ـ عجباً .. من اين واتتك هذه الشجاعة أيها الصديق .

ـ آه . أهذا أنت يا هولمز ؟ .. هل أنت بحاجة إلىّ .

ـ نعم . قم .

ومضى به إلى النافذة وقال : انظر .. إلى الناحية الأخرى من البوابة .

ألا ترى شيئاً ؟

ـ أنني لا أرى شيئاً ؟

ـ بل ترى . هناك ، بجدار البوابة ، . انظر .. انهما يتحركان . كفى مضيعة الوقت .

وأسرعا يهبطان السلم ، وهما يعتمدان على الدرابزين . وولجا غرفة تؤدى إلى الحديقة . ورأيا من خلال الألواح الزجاجية للباب أن الشبحين لا يزالان فى نفس المكان .

وقال هولمز : هذا عجيب . يخيل لى أننى اسمع صوتاً فى البيت .

ـ فى البيت ؟ .. مستحيل . أن الجميع نيام .

ـ انصت إذن .

وفى هذه اللحظة انطلق صفير خافت من ناحية البوابة ، ورأيا ضوءاً خافتاً ينبعث من داخل البيت . وتمتم هولمز :

ـ لا ريب أن الزوجين هما اللذان أضاءا النور . فهذه غرفتهما وتقع فوق غرفتنا .

وانطلق صفير آخر ، أشد خفوتاً من الأول . وقال هولمز فى استياء :

ـ أننى لا أفهم شيئاً .

صفير ثالث ، مرتفع بعض الشيء ومنغم شيئاً ما . واشتدت الجلبة وازدادت وضوحاً . وهمس هولمز :

ـ يخيل إلى أنها صادرة من البقعة المنبسطة أمام الشرفة .

وأطل برأسه من فتحة النافذة ، ولكنه سرعان ما ارتد وهو يطلق

ـية مختنقة . ونظر واطسون بدوره . كان هناك بالقرب منهما سلم ـداً إلى الشرفة . وقال هولمز :

ـ هناك شخص فى المخدع . وهذا ما سمعناه . أسرع ، ولنرفع السلم .

ولكن فى هذه اللحظة بالذات تسلل شخص من فوق وهبط إلى أسفل ، ورفع السلم . وجرى الرجل الذى يحمله بكل سرعة نحو البوابة ، فى نفس المكان الذى ينتظره فيه شريكاه . واندفع هولمز وواطسون ، ولحقا به بينما كان يضع السلم أمام الباب . وانطلقت من الناحية الأخرى رصاصتان .

وصاح هولمز : هل أصبت .

أجابه واطسون : كلا .

وأمسك بالرجل وحاول أن يشل حركته . ولكن الرجل تحول إليه وأمسكه بإحدى يديه وأغمد بالأخرى خنجراً فى صدر واطسون . وند عن هذا الأخير آهة ، وترنح ووقع . وصاح هولمز :

ـ اللعنة ! ... الويل لهم لو أنهم قتلوه .

ومدد واطسون فوق العشب واندفع نحو السلم ... ولكن بعد فوات الأوان . فقد تسلقه الرجل ، وتلقاه زميلاه وهربوا بين الأشجار الضخمة .

وصاح هولمز :

ـ واطسون . واطسون .. الأمر ليس خطيراً ... مجرد جرح بسيط ، أليس كذلك ؟

وانفتحت أبواب البيت فجأة . وأقبل البارون دامبرفال أولا ، وتبعه الخدم ، بأيديهم الشموع . وقال البارون :

ـ ما الخبر ؟ .. هل أصيب مستر واطسون ؟

عاد هولمز يقول وهو يحاول أن يوهم نفسه :

ـ لا شيء ... مجرد جرح بسيط .

ولكن الدم كان يسيل بغزارة . والوجه كان مصفراً .

وتحقق الطبيب الذى أقبل بعد عشرين دقيقة أن نصل الخنجر توقف على بعد أربع ملليمترات من القلب وقال :

ـ أنه محظوظ حقاً . لا بد له من ملازمة الفراش ستة أسابيع ، وشهرين نقاهة .

***

وإذا اطمأن هولمز تمام الاطمئنان عاد إلى البارون فى المخدع . فى هذه المرة لم يخرج اللص صفر اليدين . وإنما تجرأ واستولى على التمثال الصغير المرصع بالماس ، وعلى عقد الياقوت ، وعلى كل ما استطاع أن يحشو به جيوبه .

وكانت النافذة لا تزال مفتوحة ، وقطع لوح الزجاج ، وأثبت التحقيق الذى تم فى الصباح الباكر أن السلم الذى استخدم ، أتى به اللص من البيت الجارى بنائه . وقال مسيو دامبرفيل فى شيء من السخرية :

ـ صفوة القول ، هذه السرقة تكرار دقيق لسرقة المصباح .

ـ هذا صحيح ، إذا تقبلنا التفسير الذى تبنته العدالة .

ـ أمازلت لا تتبناه أنت ؟ ألم تقوض السرقة الثانية رأيك الأول .

ـ بل أنها تؤيده .

ـ هل هذا معقول . أن أمامك دليل لا يمكن وصفه بأن السطو الذى وقع

الليلة قام به شخص من الخارج ، ولا تزال تصر مع ذلك على أن المصباح قد سرقه شخص من الداخل ؟

ـ شخص يقيم فى هذا البيت .

ـ كيف تفسر إذن ؟ .

ـ أننى لا أفسر شيئاً يا سيدى ، وإنما أسجل حادثين لا علاقة بينهما فى الظاهر ، وأدرس كلا منهما على حدة ، وأحاول أن أجد الصلة التى تربط بينهما .

كان اقتناعه يبدو من العمق ، وطريقة تصرفه مبنية على أسباب قوية بحيث أن البارون لم يسعه إلا أن يحنى رأسه . وقال :

ـ لكن . سنخطر البوليس إذن .

صاح الانجليزى على الفور :

ـ كلا . لا تفعل .. لا أريد الاتصال بهؤلاء السادة إلا إذا احتجت إليهم .

ـ وإطلاق الرصاص .

ـ لا أهمية له .

ـ وصديقك ؟

ـ إنما صديقى جريح فحسب . اطلب من الطبيب أن يلزم الصمت . وأنا الكفيل بكل شيء من ناحية البوليس .

***

ومر يومان دون حادث يذكر ، تابع هولمز فيهما بدقة شديدة ، وكرامة جريحة ذلك الاعتداء الجرىء الذى وقع تحت عينيه ومن غير أن يستطيع له

دفعاً . وراح يفتش دون ملل أو تعب البيت والحديقة . ويستجوب الخدم . وتوقف قليلاً في المطبخ وفي الاسطبل . ورغم أنه لم يهتد إلى شيء ينير له الطريق فانه لم يشعر بأي يأس أو إحباط . وراح يحدث نفسه قائلا : سوف أجد ما أريد . سوف أجده .. أن الأمر هنا ليس كما كان في قضية الغادة الشقراء . فقد كنت أتخبط وأسير نحو غاية لا أعرفها . أما هذه المرة فأنا على أرض المعركة بالذات . والعدو ليس أرسين لوبين الذى لا أستطيع لمسه أو رؤيته وإنما هي معركة مع الشريك الذى يقيم ويعيش في هذا البيت . فأقل أثر سوف يقودني إليه .

وكان الأثر الذى يتكلم عنه . والذى مكنه من إماطة اللثام عن لغز المصباح الغامض بتلك العبقرية . ذلك الأثر ساقته إليه الصدفة وحدها .

***

في أصيل اليوم الثالث . دخل غرفة تقع فوق المخدع . تتلقى فيها الطفلتان دروسهما . ووجد هنريت . صغرى البنتين . تبحث عن مقص . وقالت تخاطب هولمز :

ـ أنني أقص أنا الأخرى أوراقاً كتلك التي تلقيتها أنت منذ ايام .

ـ منذ أيام ؟

ـ نعم . أنك تلقيت أثناء العشاء ورقة عليها كلمات . أعني برقية .. حسناً. أنني أصنع مثلها أنا الأخرى .

وخرجت . وما كانت هذه الكلمات لتعني شيئاً أكثر من أفكار تافهة لطفلة. وحتى هولمز نفسه أصغى إليها وهو شارد الذهن . ولكنه راح يجرى خلف الطفلة فجأة وقد أثارته عبارتها الأخيرة . ولحق بها في أعلا السلم

وقال لها :

ـ إذن فأنت أيضاً تلصقين كلمات على الورق .

أجابت هنريت وهي فخورة جداً :

ـ أجل ... أنني ألصق كلمات بعد أن أقصها .

ـ ومن الذى علمك هذه اللعبة الصغيرة ؟

ـ الآنسة . مربيتي .. رأيتها تفعل ذلك ... فهي تقطع كلمات من الجرائد وتلصقها .

ـ وماذا تفعل بها ؟

ـ تصنع منها برقيات ورسائل تبعث بها .

عاد شرلوك هولمز إلى غرفة الدراسة وقد أثارته كلمات الطفلة . وحاول أن يستنتج منها الاستنتاجات الحتمية .

جرائد ... كان هناك حزمة منها فوق الموقد . فبسطها أمامه . ورأى فعلا بعض الكلمات وبعض العبارات ناقصة . اقتطعت بعناية فائقة . ولكن كان يكفيه أن يقرأ الكلمات السابقة أو التالية لكي يتحقق من أن تلك الكلمات قد اقتطعتها هنريت بالذات من المقص . ولكن قد يكون هناك . بين الجرائد . جريدة اقتطعت الآنسة بالذات بعض كلماتها . ولكن كيف يتأكد ؟

وراح شرلوك يقلب صفحات الكتب المدرسية المكدسة فوق المنضدة في غير تفكير . ثم الكتب الأخرى المرصوصة فوق رفوف أحد الدواليب . وأفلتت من بين شفتيه فجأة صيحة تدل على الفرح . فقد عثر تحت بعض الكتب والكراسات القديمة على أحد كتب الحروف الأبجدية المصورة . وبدأ له في إحدى صفحات ذلك الكتاب فراغ . وكانت الصفحة تحتوى على أسماء أيام

الأسبوع . وكانت الأيام كلها موجودة فيما عدا يوم السبت . فقد اقتطع .
وكانت سرقة الصباح قد وقعت يوم السبت .

أحس شرلوك بذلك الانفعال الذى يحس به دائماً وبكل وضوح عندما يصل إلى عقدة محيرة . لم يكن ذلك الانفعال يخدعه أبداً . وراح يقلب صفحات الكتاب . وكانت تنتظره مفاجأة فى صفحة أخرى .

فقد كانت الصفحة تضم الحروف الأنجليزية مطبوعة بالطريقة الاستهلالية . ويتبعها سطر سجلت به الأرقام . وكانت تسعة من تلك الأرقام والحروف ناقصة فسجلها فى مذكرته بالترتيب . وكان هذا نصها .

ج . ن . ك . و . ١ . ١ . ب . ى . ى ٧٣٢ .

وتمتم : عجباً ... هذه الحروف والأرقام لا معنى لها تقريباً .

ولكن . هل يمكن بتغيير وضعها الوصول إلى نتيجة . وراح يحاول . وبذل جهداً كبيراً حتى توصل إلى وضع الحروف والأرقام بالترتيب الذى بدا له معقولاً . وكانت النتيجة كالآتى .

أجينى ايكو ٧٣٢ .

وبهذه النتيجة التى توصل إليها وبكلمة السبت الناقصة . أدرك أن الموعد المحدد هو يوم السبت ولكن ما معنى ٧٣٢ .. لا ريب أنه رقم صندوق بريد .

وكانت هنريت قد عادت فسألته : أنها لعبة ممتعة . أليس كذلك .

أجابها : نعم . ولكن أليس معك أوراق أخرى ... أو كلمات مقطوعة أستطيع أن ألصقها .

- أوراق كلا . ثم أن الآنسة لن يسرها ذلك . فقد سبق ونهرتني .

- لماذا ؟

- لأنني أعطيتك أشياء ... وقالت أنه لا يجب أن نذكر شيئاً عن الأشخاص الذين نحبهم .

- أنت على حق تماماً .

يبدو أن هنريت قد راق لها هذا القول إلى حد أنها اخرجت من حقيبة صغيرة من القماش مشبوكة فى ثوبها بضعة أشياء تافهة : ثلاثة أزرار . وقطعتان من السكر وأخيراً قصاصة صغيرة من الورق وقالت :

- حسناً . أنني أعطيك هذا على كل حال .

كان مدوناً على الورقة رقم مركبة . وسألها :

- من أين أتيت ؟ بهذه الورقة ؟

- أنها وقعت من كيس نقودها .

- متى ؟

- يوم الأحد . فى الكنيسة . بينما كانت تخرج بعض النقود لصندوق النذور .

- حسناً . والآن لا تقولى للآنسة أنك رأيتني حتى لا تنهرك ثانية .

***

وذهب هولمز إلى البارون رأساً واستجوبه عن الآنسة . فهز كتفيه وقال :

- أليس ديمون ؟ . هل تظن .. هذا مستحيل .

- منذ متى وهى تعمل فى خدمتكم ؟

ـ منذ سنة فقط . ولكنني لا أعرف شخصاً أكثر منها هدوءاً . ثم أنني أوليها كل ثقتي .

ـ وكيف حدث أنني لم أرها بعد ؟

ـ أنها تغيبت يومين . وما أن عادت اليوم حتى أسرعت لكي ترعى صديقك فان لها صفات الممرضة . رقيقة ، وخدومة .. ويبدو أن مستر واطسون مسرور بها .

قال هولمز ، ولم يكن قد اهتم بالسؤال عن صديقه : آه .

وفكر لحظة ثم سأل : وهل خرجت صباح يوم الأحد ؟

دعا البارون زوجته وألقى عليها السؤال فأجابت :

ـ خرجت الآنسة كعادتها لكي تمض إلى الكنيسة ، في الساعة الحادية عشرة مع البنتين .

ـ وقبل ذلك ؟

ـ قبل ذلك ، كلا ... ولكنني كنت منزعجة بسبب السرقة ... ومع ذلك فانني اتذكر أنها طلبت في اليوم السابق السماح لها بالخروج يوم الأحد صباحاً لرؤية ابنة عم لها كانت تمر بباريس . ولكنني لا أظنك تشتبه فيها .

ـ طبعاً لا .. ومع ذلك فانني أود أن أراها .

وصعد إلى غرفة واطسون . كانت هناك امرأة ترتدي زي الممرضات ، ثوباً من القماش الرمادي ، منحنية فوق المريض ، وتساعده على الشراب . وعندما تحولت إليه عرف فيها هولمز الفتاة التي التقت به أمام محطة الشمال .

***

لم يدر بينهما أي كلام . وابتسمت أليس ديمون في هدوء بعينيها الصافيتين الرزينتين ، دون أن يبدو عليها أي انزعاج . وأراد الانجليزي أن يتكلم ، ولكنه لم ينطق إلا ببضع كلمات لا معنى لها ثم سكت . وعندئذ عادت إلى عملها ، وراحت تتحرك في هدوء تحت بصر هولمز المشدوه ، وحركت بعض القناني ، وفكت ولفت بعض الضمادات ، ونظرت إليه بابتسامتها الصافية من جديد .

دار على عقبيه وهبط . ورأى في الفناء سيارة البارون فركبها ، وأمر السائق أن يذهب به إلى شركة المركبات التي رأى عنوانها في الورقة التي أعطته الطفلة إياها . ولم يكن السائق دوبريه ، الذي كان يسوق السيارة رقم ٨٢٧٩ في صباح يوم الأحد موجوداً ، فأعاد السيارة وانتظر حتى أقبل السائق .

وقال دوبريه أنه أقل فعلاً ، من حديقة مونسو ، امرأة شابة ترتدي ثياباً سوداء ، وتضع على وجهها نقاباً سميكاً وكانت تبدو شديدة الاضطراب .

ـ وهل كانت تحمل صرة ؟

ـ نعم صرة طويلة شيئاً ما .

ـ وأين ذهبت بها ؟

ـ إلى شارع تيرن ، على ناصية ميدان سان فرديناند . بقيت هناك عشر دقائق ثم عادت إلى حديقة مونسو .

ـ هل تعرف البيت الذي مضت إليه ؟

ـ طبعاً . أتريد أن أمضي بك إليه .

ـ نعم . ولكن امض بي أولاً إلى رقم ٣٦ برصيف أورفيفر .

وكان من حسن حظه أن وجد المفتش جانيمار فى إدارة الأمن ، فقال له :

- هل هناك ما يشغلك يا مسيو جانيمار .

- إذا كان الأمر خاصاً بلوبين فان هناك ما يشغلنى .

- الأمر خاص بلوبين فعلاً .

- لن أتحرك إذن .

- كيف هذا ؟ هل تتخلى ...

- أننى أتخلى عن المستحيل . لقد تعبت من هذا النضال غير المتكافئ، الذى لا يصيبنى منه إلا الفشل . سترمينى بالجبن ، وبكل ما تريد ، ولكننى لا أحفل . أن لوبين أقوى منا ، وليس أمامنا إلا أن نحنى رؤوسنا .

- أما أنا فلن أحنى رأسى .

- سوف يرغمك على احنائها كما أرغم الكثير فى غيرك .

- حسناً . هذا أمر سوف يمتعك كثيراً .

قال جانيمار فى سذاجة : هذا صحيح . وما دمت لم تتق تصيبك من الصفعات فهلم بنا .

واستقل المركبة . وتوقف السائق بناء على أمرهما قبيل البيت . فى الناحية الأخرى من الشارع . أمام مقهى صغير جلسا فى شرفتها ، وطلب هولز من الجرسون أن يأتيه بورقة وقلم وسطر بضع كلمات ثم استدعى الجرسون وقال له :

- أرجو أن تسلم هذه الورقة لبواب البيت المواجه .

وأسرع إليهما البواب . وبعد أن كشف له جانيمار عن هويته كمفتش بوليس ، سأله هولز إذا كانت قد أقبلت امرأة شابة ترتدى ثوباً أسود ، صباح يوم الأحد ، فأجاب :

- نعم . جاءت وصعدت إلى الطابق الثانى .

- وهل تراها كثيراً .

- كلا . ولكننى رأيتها أكثر من مرة منذ بضعة أيام ... كل يوم تقريباً منذ أسبوعين .

- وبعد يوم الأحد ؟

- جاءت مرة واحدة . وقد اقبلت اليوم .

- كيف هذا ؟ ... هل أقبلت اليوم ؟

- نعم . وهى هنا منذ عشر دقائق . والعربة التى أتت بها تنتظر فى ميدان سان فردنيان كالعادة .

- ومن الساكن المقيم فى الطابق الثانى ؟

- يقيم به ساكنان ... الآنسة لا نجيه ، ورجل استأجر غرفتين مفروشتين منذ شهر باسم مسيو برسيون .

- لماذا تقول باسم برسيون ؟

- ذاك إنه خطر لى أنه اسم مستعار . وزوجتى تقوم بخدمته . وليس بين قمصانه قميصان بنفس الحروف الأولية من هذا الاسم .

- وكيف يعيش ؟

- أوه . أنه يقضى أوقاته خارج البيت تقريباً . ويحدث أن لا يعود إلى

البيت ثلاثة أيام متوالية .

ـ وهل عاد إلى البيت مساء يوم السبت ؟

ـ مساء يوم السبت ؟ . آه ، نعم . جاء يوم السبت ، ولم يخرج بعد ذلك .

ـ وأى نوع من الرجال هو ؟

ـ الواقع أننى لا أدرى ماذا أقول .. فهو متغير .. أحياناً طويل القامة ، وأحياناً قصيرها . وأحياناً بدنياً ، واحياناً نحيفاً .. تارة أسمر ، وأخرى أشقر . حتى ليخيل الى فى كل مرة أننى لا أعرفه .

تبادل جانيمار وهولمز النظر ، وتمتم مفتش البوليس .

ـ أنه هو . أنه هو تماماً .

وأحس المفتش العجوز بشيء من البلبله ، وتوترت قبضتاه فى انفعال ، ورغم أن هولمز كان أكثر منه هدوءاً فقد أحس بانقباض فى صدره . وقال البواب فجأة :

ـ آه ... ها هى المرأة الشابة .

وظهرت الآنسة على عتبة الباب فعلاً ، وعبرت الميدان .

ـ وها هو مسيو بريسون .

ـ مسيو بريسون .. ولكن أيهما .

ـ ذلك الذى يحمل صرة تحت ابطه .

ـ ولكنه غير مهتم بالفتاة ، فهى تعود إلى المركبة وحدها .

ـ آه ... أننى لم أرهما معا أبداً .

أسرع الرجلان بالنهوض ، وعرفا على ضوء الفوانيس هيئة لوبين ، وكان يبتعد فى الناحية الأخرى من الميدان . وقال جانيمار :

ـ من تفضل أن تتعقب .

ـ هو طبعاً . فهو الصيد الأهم .

ـ سأتعقب أنا الفتاة إذن .

ولم يكن هولمز يريد أن يكشف شيئاً عن القضية لجانيمار ، فاسرع يقول :

ـ كلا . كلا .. أننى أعرف أين أجد الفتاة فلا تتركنى .

***

وراحا يتعقبان لوبين وهما يحتميان بالمارة وبالأكشاك . وكانت مطاردة سهلة لأن لوبين لم يكن يلتفت حوله ، ويمشى مسرعاً وهو يعرج بساقه اليمنى عرجاً خفيفاً يكاد لا يلحظ . وقال جانيمار :

ـ أنه يتظاهر بالعرج ... آه . لو وقعت فى الطريق على رجلين أو ثلاثة من رجال الشرطة لأطبقنا عليه ، فانى أخشى أن نفقد أثره .

ولكن لم يظهر أى أحد من رجال الشرطة . وإذ بلغا بوابة الاستحكامات الفرنسية لم يعد هناك أى أمل فى لقاء أى واحد منهم . وقال هولمز :

ـ لنفترق الآن ... فقد أصبح المكان مكشوفاً .

وكانا قد بلغا شارع فيكتور هوجو . فمشى كل منهما على رصيف ، وراحا يتقدمان محتمين بالأشجار ، وظل على هذه الحال نحو عشرين دقيقة ، إلى أن انعطف لوبين يساراً وراح يمشى بمحاذاة نهر السين .

وهناك رأيا لوبين يهبط إلى حافة النهر ، ويقف بضع دقائق دون أن يتمكنا من تمييز حركاته ، ثم عاد أدراجه وصعد إلى الشاطىء ، فالتصقا بأحد أعمدة النور . ومر لوبين بجوارهما ، ولم تكن الصرة معه .

وما أن ابتعد لوبين حتى برز رجل من ظل أحد البيوت ، وتسلل بين الأشجار . وقال هولمز في صوت خافت :

ـ يبدو لي أنه يتعقبه هو الآخر .

وبدأت المطاردة من جديد . ولكن في شيء من التعقيد بسبب ذلك الرجل. وعاد لوبين من نفس الطريق إلى بيت ميدان سان فرديناند .

واقترب جانيمار من البواب وهو يوشك أن يغلق الباب وقال له :

ـ أنك رأيته ، أليس كذلك ؟

ـ نعم . وقد صعد السلم ، وأغلق باب مسكنه بالمزلاج .

ـ ألا يوجد معه أحد ؟

ـ لا أحد ، ولا خادم . وهو لا يتناول طعامه هنا أبداً .

ـ وهل هناك سلم للخدم ؟

ـ كلا .

وعندئذ انثنى جانيمار إلى هولمز وقال له :

ـ ان أبسط شيء هو أن أنتظر أنا بجوار باب لوبين بينما تمضي أنت إلى معاون البوليس بشارع ديمور . سأعطيك رسالة له .

اعترض هولمز قائلاً : وإذا هرب أثناء ذلك .

ـ ولكني سأبقى بجوار الباب .

ـ واحد ضد واحد ... سيكون الصراع غير متكافىء .

ـ ليس في استطاعتي اقتحام مسكنه مع ذلك ، فلا حق لي في ذلك ، خصوصاً في الليل .

هز هولمز كتفيه وقال : عندما تلقى القبض على لوبين فلن يلومك أحد عن ظروف القبض عليه . ثم أن الأمر لن يتجاوز دق الجرس . وسنرى ما سوف يقع بعد ذلك .

وصعدا . وكان أمامهما ، على البسطة ، باب إلى اليسار ، ودق جانيمار الجرس . ولم يرد عليه أحد . فدق مرة أخرى . وإذا لم يتلق رداً كذلك ، قال هولمز :

ـ هلم بنا ندخل .

ومع ذلك فقد بقيا مكانهما لا يتحركان ، مترددين . فقد اشفقا من الإقدام على العمل ، وبدا لهما فجأة أن ارسين لوبين قريب منهما ، خلف باب هش يمكن تحطيمه بقبضة يد واحدة . وكان كل منهما يعرف لوبين وألاعيبه الشيطانية ، بحيث لا يمكن أن يسمح لنفسه بالوقوع في الفخ بمثل هذه البساطة .

وسرت الرعشة في بدن كل منهما ، فقد تناهى إليهما ، من الجانب الآخر للباب ، صوتاً خافتاً قطع حبل الصمت ، وتأكدا أنه واقف خلف الباب ينصت . ونظر جانيمار إلى هولمز بركن عينه ، كأنه يسأله الرأي ، ثم هوى بقبضته على الباب فسمعا صوت أقدام في الداخل لا يحاول صاحبها الهروب ، ودق جانيمار على الباب مرة أخرى ولكن هولمز انقض عليه بكتفه في حزم وعنف . واندفع كل منهما إلى الداخل . ولكنهما توقفا على الفور، فقد دوت في الغرفة المجاورة رصاصة تبعتها أخرى ، ثم صوت جسد يقع .

وعندما دخلا رأيا الرجل ممددا ووجهه إلى رخام المدفأة . وتشنج جسده ولم يلبث أن وقع المسدس من يده . فانحنى جانيمار وأدار وجهه .

كان الدم يغطيه كله . وهتف هولمز يقول :

- يا الهى ! ... أنه ليس هو .

- وكيف عرفت ذلك .. أنك لم تفحصه بعد .

زمجر الانجليزى قائلا : وهل تظن أن ارسين لوبين بالرجل الذى ينتحر .

- ومع ذلك فقد خيل الينا أنه هو ، وهو بالخارج .

- خيل الينا لأننا أردنا ذلك ، فان ذلك الرجل يسيطر على أفكارنا .

- إذن فهو أحد شركائه .

- أن شركاء ارسين لوبين لا ينتحرون .

- من هو إذن ؟

وفتشا الجثة ، وجد هولمز فى أحد جيوبها محفظة فارغة . ووجد جانيمار فى جيب آخر بضع قطع من النقود . ولم يجدا على ثيابه أى أثر أو دليل .

ولم يعثرا فى حقائبه على شيء غير الثياب . وعلى بعض الجرائد فوق المدفأة ، بسطها جانيمار ، وكانت كلها تتكلم عن سرقة المصباح .

وانصرفا بعد ساعة وهما لايعرفان شيئاً عن الرجل الذى أرغمه تدخلهما على الانتحار .

من هو ؟ . ولماذا انتحر ؟ .. وما علاقته بالمصباح المسروق . ومن الرجل الذى تعقبه فى الطريق ؟ .. أسئلة كلها معقدة وغامضة .

***

أوى هولمز إلى فراشه وهو عكر المزاج . وعندما استيقظ تلقى برقية هذا نصها :

« يتشرف ارسين لوبين بابلاغكم بموته المأساوى فى شخص السيد رسون ، ويرجوكم حضور جنازته التى ستشيع على نفقه الدولة يوم الخميس ٢٥ يونية » .

***

٥ سر المصباح

قال هولمز لصديقه واطسون وهو يلوح له ببرقية ارسين لوبين :

ـ أن ما يضايقنى فى هذه المغامرة هو أحساسى الدائم بأن عين هذا الشيطان تلازمنى ، فلا تفلت منه أقل فكرة من أفكارى ، وأشعر بأننى أقوم بدور الممثل طبقاً لسيناريو دقيق . هل تفهم يا واطسون ؟

ومن المؤكد أن واطسون كان قمينا بأن يفهم لو أنه لم يستغرق فى نوم عميق لرجل حرارته ما بين الأربعين والواحدة والاربعين درجة . ولكن سواء سمع أو لم يسمع فلم يبد هولمز أى اهتمام وراح يقول :

ـ يجب أن أستعين بكل جهدى ومواهبى لكى لا أشعر بأى أحباط . ولحسن الحظ هذه الدعابات الصغيرة كأنها وخزات دبوس تعيد إلى نشاطى وأقول لنفسى : فليلهو كما يشاء فانه سوف يقع فى النهاية . فهو ببرقيته الأولى لى ، وبحديث هتربيت معى كشف لى عن سر اتصاله بأليس ديمون . وأنا وجانيمار متواعدان على اللقاء على شاطىء السين ، فى نفس المكان الذى ألقى فيه بريسون بالصرة التى كانت معه . وسنعرف عندئذ كل شىء عن الدور الذى قام به فى هذه المغامرة . أما الباقى فهو بينى وبين أليس

ديمون ، وهى ليست بالند الذى يمكنه أن يتصدى لى .

***

دخلت الآنسة فى هذه اللحظة ، وإذ رأت هولمز يلوح بيدية قالت له فى رفق :

ـ سوف أزجرك يا مسيو هولمز إذا ايقظت مريضى . فليس من الخير أن تضايقه ، وأوامر الطبيب صارمة وتقتضى الهدوء التام .

حدجها دون أن ينطق وقد أدهشه ، كما أدهشه فى اليوم الأول ، هدوؤها العجيب . وقالت :

ـ لماذا تحدجنى هكذا يا مسيو هولمز ؟ لا شىء ؟ ... بل هناك سبب ، فانه يبدو عليك دائماً أنك تخفى شيئاً فى صدرك ، فما هو . أجبنى أرجوك .

ألقت عليه كل هذه الأسئلة بمنتهى الصراحة ، وبعينين بريئتين وفم مبتسم ، ويديها المعقودين فوق صدرها المنحنى إلى الأمام قليلاً ، وبراءة بحيث أن الانجليزى أحس بالغضب ، فاقترب منها وقال فى صوت خافت :

ـ انتحر مسيو بريسون مساء أمس

كررت قوله دون أن تفهم كما يبدو :

ـ انتحر بريسون مساء أمس ؟

لم يظهر على وجهها أى توتر ، ولا أى شىء يدل على أنها تبذل أى جهد لكى تكذب ، فعاد يقول فى غضب :

ـ كنت تعلمين إذن ، وإلا لبدت عليك الدهشة على الأقل . آه .. أنك أقوى مما كنت أظن . ولكن لماذا تتكتمين .

وأمسك بكتاب الصور الذى كان قد ألقاه فوق المنضدة المجاورة ، وفتحه عند الصفحة المقطعة وقال :

ـ هل يمكنك أن تذكرى لى كيف أرتب هذه الحروف التى تنقص هنا لكى أعرف المضمون الصحيح الذى أرسلته إلى بريسون قبل أن يسرق المصباح بأربعة أيام ؟

رددت كلماته فى بطء ، كما لو كانت تستخلص منها معناها ، فقال فى إصرار :

ـ نعم . هذه هى الحروف المستخدمة ، على هذه الورقة ، ماذا قلت لبريسون ؟

ـ الحروف المستخدمة ؟ ... ماذا قلت لبريسون ؟ .

وفجأة انفجرت ضاحكة وقالت :

ـ آه . فهمت ، فأنا شريكة فى السرقة . هناك مسيو بريسون الذى سرق المصباح وانتحر ، وأنا صديقة ذلك السيد . آه .. أن هذا لمضحك !

ـ من الذى زرته إذن مساء أمس فى الطابق الثانى من البيت الذى يقع فى شارع دى تيرن .

ـ من ؟ . اننى ذهبت لزيارة الآنسة لانجيه ، صانعة القبعات . أتكون هى ومسيو بريسون شخص واحد .

ورغم كل ذلك ظل الشك قائماً لدى هولمز ، فان المرء يستطيع أن يتظاهر بالخوف أو بالمرح أو بالقلق أو بكل المشاعر ، ولكنه لا يستطيع التظاهر

بعدم الاكتراث أو بالضحكة السعيدة اللامبالية . ومع ذلك فقد عاد يقول :

ـ كلمة أخيرة . لماذا التقيت بى فى تلك الليلة ، فى محطة الشمال ؟ ولماذا توسلت إلى أن أسرع بالعوده دون أن أهتم بهذه السرقة .

أجابته وهى لا تزال تضحك بطريقة طبيعية :

ـ آه ... أنت رجل فضولى جداً يا مسيو هولمز . وعقاباً لك لن تعرف شيئاً ، وفوق ذلك سوف ترعى المريض ريثما أمضى إلى الصيدلية لاحضار أدوية أمر بها الطبيب .

وخرجت ، وتركت هولمز وحده مع المريض فتمتم :

ـ أنها مكرت بى . لم استطع الحصول منها على شىء . بيد أني كشفت نفسى فقد عرفت الآن قصة الكتاب ، وأراهن أن لوبين سيعرف ذلك قبل ساعة . بل الآن فوراً .. وما الأدوية التى أمر بها الطبيب الا خدعة .

وأسرع بالخروج إلى الشارع ، ورأى الآنسة تدخل صيدلية . وخرجت بعد عشر دقائق ومعها بعض القنانى وزجاجة ملفوفة فى ورق أبيض . ولكن بينما كانت تعود اعترضها رجل كان يتبعها ، وقبعته فى يده فى إحترام باد كما لو ليطلب منها صدقة . وتوقفت الفتاة لحظة وأعطته الصدقة ثم عاودت السير . وقال الانجليزى يحدث نفسه : أنها كلمته .

ولكنه لم يكن على يقين من ذلك . ومع ذلك فقد غير خطته وترك الفتاة وانطلق خلف المتسول المزيف .

ووصل إلى ميدان سان فردينان . وراح الرجل يحوم حول بيت بريسون ، ويرفع عينيه من وقت لآخر إلى الطابق الثانى ، ويراقب الناس الذين يدخلون البيت .

وبعد ساعة ، استقل الرجل الترام المنطلق إلى نويى ، وصعد هولمز بدوره وجلس بجوار رجل تحجب وجهه الصفحات المفتوحة لجريدة . وهبطت الصحيفة عند الاستحكامات ، ورأى هولمز عندئذ أنه جانيمار . وهمس له هذا الأخير في اذنه وهو يشير إلى الرجل :

- هذا هو رجل الأمس الذى كان يتبع بريسون ، وراح يحوم حول البيت منذ ساعة .

سأله هولمز : هل من جديد عن بريسون ؟

- جاءته رسالة صباح اليوم .

- صباح اليوم . إذن فقد ألقيت في صندوق البريد أمس قبل أن يعرف الراسل نبأ موت بريسون .

- بالذات . وهي بين يدي قاضي التحقيق . ولكنني أتذكر مضمونها .

« أنه لا يقبل أي اتفاق . يريد كل شيء .. الشيء الأول ، وكذلك أشياء المرة الثانية ، وإلا فسوف يتصرف .

واردف جانيمار : وهي بغير توقيع . ولن تفيدنا في شيء ، كما ترى .

- أنني لا أتفق معك في هذا الرأى يا مسيو جانيمار ، فان كلمات تلك الرسالة تبدو لى على العكس ذات أهمية كبرى .

- ولماذا بالله ؟

أجاب هولمز في هدوء :

- لأن معناها واضح بالنسبة لى .

وتوقف الترام في شارع شاتون ، نهاية الخط ، وهبط الرجل منه وسار

في هدوء . وتعقبه هولمز وجانيمار . واقترب هذا الأخير منه تقريباً ، بحيث نبس هولمز بالخوف وقال :

- إذا التفت فسوف ينكشف أمرنا .

- أنه لن يلتفت .

- وما أدراك ؟

- أنه شريك لأرسين لوبين . وبما أن شريكاً للوبين يمشى هكذا ويداه في جيبه فهذا يثبت أنه يعرف أن هناك من يتبعه ، وأنه لا يخشى شيئاً .

- ومع ذلك فنحن قريبين منه جداً .

- ولكن حتى لا يفلت من بين ايدينا قبل دقيقة ، فانه واثق جداً من نفسه .

- ولكن . أنك تثير أعصابي . أنظر هناك ، عند باب هذا المقهى . شرطيان من راكبي الدراجات . إذا قررت اللجوء إليهما فانني اتساءل كيف يمكنه الأفلات منا .

- يبدو أن الرجل لا يبالي بهذا الاحتمال ، فهو نفسه يمضى إليهما .

هتف جانيمار : يا للشيطان ! ... أنه جرىء .

والواقع أن الرجل تقدم نحو الشرطيين عندما هما بركوب دراجتيهما ، وقال لهما شيئاً ، ثم وثب فجأة فوق دراجة ثالثة ، مستندة إلى جدار المقهى ، وأسرع بالابتعاد مع الشرطيين .

وقهقه الانجليزى وقال : ما رأيك الآن ؟ ألم أتوقع ذلك . لقد هرب ، ومع من ؟ . مع شرطيين .. آه ... أن لوبين هذا جرىء ، حقاً ، ولا يخاف شيئاً حتى أنه ليرشو رجال الشرطة ، ويستعين بهم .

صاح جانيمار في استياء : إذن ، ماذا نفعل ؟ ، من السهل أن تضحك .

ـ لا تغضب ، سوف ننتقم . ولكن لابد لنا الآن من نجدة .

ـ أن فولنفان ينتظرني في آخر شارع فولنفاي .

ـ امض إليه إذن وعد إلي معه .

وابتعد جانيمار ، وتتبع هولمز آثار الدراجات ، وحملته بعد قليل إلى نفس الشاطئ ، وكان عبارة عن لسان صغير من الأرض يمتد نحو نهر السن ، حيث رأى قارباً قديماً على الشاطئ يجلس فيه صياد .

وقف بريسون بالأمس في ذلك المكان وألقى بالصرة في الماء . وهبط هولمز وقد رأى أن من السهل أن يجد الصرة ، هذا ما لم يكن الرجال الثلاثة قد سبقوه ..

وقال يحدث نفسه :

ـ كلا ، كلا . أنهم لم يجدوا متسعاً من الوقت ، فلم تمض أكثر من ربع ساعة . ومع ذلك ، فلماذا مروا من هنا . واقترب من الصياد وقال له :

ـ ألم تر ثلاثة رجال بدراجاتهم ؟

وضع الصياد سنارته تحت ابطه ، وأخرج مفكرة من جيبه كتب شيئاً على ورقة منها ثم انتزعها وناولها لهولمز فقرأ فيها ما يلي :

ج ن ك و ١١ ب ب ٧٢٢

وكانت الشمس ترسل أشعتها الحامية على النهر . وعاد الصياد فامسك بصنارته وألقى بها في النهر ، تحمي رأسه من أشعة الشمس قبعة عريضة الحواف . وقد ألقى بجاكتته بجواره ، ومضت دقيقة ، ساد فيها صمت ثقيل . وقال هولمز يحدث نفسه : أنه هو .

وأخرج مسدسه من جيبه ، وأحس برغبة ضارية في أن يطلق الرصاص وأن ينتهي من كل شيء . ولكن مثل هذا العمل كان ضد طبيعته ، وقال يحدث نفسه :

ـ فلينهض وليدافع عن نفسه ... وإلا فالويل له .. لحظة أخرى وأطلق النار .

ولكنه سمع وقع خطوات خلفه فاستدار ، ورأى جانيمار يأتي نحوه ، وبرفقته بعض رجال الشرطة ، فغير رأيه ووثب إلى القارب فانقطع الحبل الذي يربطه إلى الشاطئ نتيجة لقوة الوثبة . ووقع هولمز فوق الرجل وأمسك بخناقه ، وتدحرج الاثنان في قاع القارب . وصاح لوبين وهو يقاومه : بعد ؟ ... ما الذي ترمي إليه ؟ . ماذا يحدث لو تغلب أحدنا على الآخر ؟ لن تقدم على الأطلاق ، فلن تعرف ماذا تفعل بي ، ولن أعرف ماذا أفعل بك . سنبقى في قاع المركب كغبيين .

وانزلق المجدافان في الماء ، وانساق القارب مع التيار . وارتفعت الصيحات بطول الشاطئ ، واستطرد لوبين :

ـ ما هذه الحماقة ؟ . هل فقدت رشدك ؟ .. وفي سنك هذه ... ما أقبح هذا ! وأفلح في التخلص ، فاغتاظ هولمز ، ودس يده في جيبه في عزم وإصرار ، ولكنه لم يجد المسدس ، فقد سرقه لوبين منه . وجثا عندئذ على ركبته وحاول الأمساك بأحد المجدافين ، ولكنه لم يفلح . فقال لوبين :

ـ أرأيت ؟ . أن القدر نفسه مع لوبين .. والتيار يحالفني .

ذلك أن القارب راح يبتعد عن الشاطئ فعلاً .

وصوب بعضهم مسدسه فخفض رأسه وانطلقت رصاصة واستقرت في

الماء على كثب من القارب . وقال لوبين :

هذا عمل غير سليم يا جانيمار . فإن القانون لا يخولك اطلاق النار إلا

- هذا عمل غير سليم يا جانيمار

في حالة الدفاع عن النفس :

وأخرج مسدساً ، وأطلقه دون أن يصوب . ورفع المفتش يده إلى قبعته ،

فإذا بالرصاصة قد ثقبتها . وقال لوبين :

- ما رأيك يا جانيمار ؟ هذا المسدس أنتجته شركة خبيرة في صناعة

المسدسات ، أنه مسدس صديقي العزيز الاستاذ شرلوك هولمز .

وقذف بالمسدس بكل قوته عند قدمي جانيمار . ثم تحول إلى هولمز وقال

له :

- أنك في مكان الصدارة يا أستاذ . ولا أظنك ترضى أن تتخلى عنه بكل

ذهب العالم . ذلك أنك في الصف الأول من المقاعد . ولكن ، أولاً وقبل كل

شيء التمهيد . وبعد ذلك سوف نقفز مرة واحدة إلى الفصل الخامس ، وهو

إما القاء القبض على ارسين لوبين أو هروبه . وعليه فعندي سؤال أرجو أن

ترد عليه يا أستاذ بلا أو بنعم . ألا تريد أن تتخلى عن هذه القضية ؟ مازال

هناك وقت وأستطيع إصلاح ما أفسدته أنت . أما إذا لم تقبل الآن فلن

أستطيع . فهل توافق ؟

- كلا .

انحنى لوبين عندئذ وانتزع لوحاً من قاع المركب . وقضى بضع ثوان في

عمل لم يستطيع الآخر أن يفهم طبيعته . ثم اعتدل لوبين وقال :

- أظن يا أستاذ أننا أتينا إلى هذا الشاطيء لنفس الغرض ، وهو

استعارة الصرة التي تخلص بريسون منها . وكنت قد تواعدت مع بعض

الزملاء للقاء هنا . واعترف أن أصدقائي عندما أخبروني بقدومك لم أشعر

بأية دهشة ، وأجرؤ فأقول أنني كنت أعرف خطواتك . خطوة خطوة ،

والأمر بسيط ، فما من شيء يحدث في شارع موريللو حتى تأتيني مكالمة

تليفونية أعرف منها كل شيء .

وكان الماء قد تسرب إلى القارب ، من مكان اللوح المنزوع فقال :

- عجباً .. لا أدري ماذا فعلت ، فهل أنت خائف .

هز الانجليزي كتفيه . وعاد لوبين يقول :

- ولعلك تفهم أنني في هذه الظروف ، وأنا أعرف مقدماً ، أنك تنشد

النضال ، بقدر ما أبذل أنا جهدي لتفاديه ، كان يروق لي بالأحرى أن

أخوض معك معركة كل خيوطها في يدي . وأردت أن أتيح لمقابلتنا كل

البريق الممكن حتى يعرف العالم أجمع هزيمتك فلا يلجأ إليك أحد بعد ذلك

يا أستاذي العزيز ، كما لجأ إليك البارون دامبرفال والكونتس كروزون .

وأمسك مرة أخرى ، واستخدم يديه وهي نصف مطبقتين ، كما لو كانتا

نظارة ونظر إلى الشاطيء :

- آه . أنهم استقدموا زورقاً كبيراً . بارجة حربية حقاً . وها هم يجدفون

بكل قوة ، وسيصلون بعد خمس دقائق ، وأكون أنا من الهالكين . إليك

نصيحة يا مسيو هولمز . ماذا لو تنقض علي وتقيدني وتقدمني إلى عدالة

بلدي . هل يروق لك هذا البرنامج ؟ .. هذا ما لم نغرق معاً بطبيعة الحال .

لا يبقى أمام كل منا عندئذ إلا أن يحرر وصيته . فما رأيك ؟

والتقى بصراهما . وادرك هولمز عندئذ معنى العمل الذي أقدم عليه لوبين،

ثقب قاع القارب .

وارتفع الماء حتى كعبي حذاءيهما ، وغطى أقدامهما . ولكن لم يبد أى منهما أدنى حركة ، وتجاوز عرقوبيهما ، وأخرج الانجليزى كيس الدخان من جيبه ولف لنفسه سيجارة وأشعلها .

ـ وأرجو يا أستاذى العزيز أن لا ترى إلا اعترافى المتواضع بعجزى أمامك ، وانحنائى أمامك أن هو إلا قبولاً للمعارك الوحيدة التى أتأكد فيها من أن النصر سيكون بجانبى ، وهذا اعتراف منى بأن هولمز هو العدو الوحيد الذى أخشاه ، وإنى أقر بقلقى وخوفى طالما لا يبتعد عن طريقى . هذا هو ما أردت قوله لك يا أستاذى العزيز ، ما دام القدر قد شرفنى وأتاح لى فرصة الحديث معك . ولست نادماً إلا على شىء واحد وهو أن حديثنا هذا يدور ونحن نعرض أقدامنا لحمام من الماء .. بل ماذا أقول .. اعرض نصف جسمينا لحمام من الماء .

والواقع أن الماء كان قد بلغ سطح المقعد الذى يجلسان فوقه ، وراح القارب يزداد غوصاً .

وظل هولمز على هدوئه والسيجارة بين شفتيه وهو ينظر إلى السماء متأملاً . لم يرض أن تصدر منه أية بادرة من الانزعاج أو الاضطراب أمام ذلك الرجل الذى تحيط به الأخطار من كل جانب ، ويحاصره الناس ويطارده رهط من رجال الشرطة ويحتفظ رغم ذ لك بكل هدوئه ومرحه .

آه . ولكن ماذا يحاول أى منهما أن يقول . وكيف ينفعل كل منهما بمثل هذه التفاهات أفلا يغرق بعض الناس كل يوم فى النهر .. وهل يستحق ذلك كل هذا الاهتمام ؟ كان أحدهما يثرثر والآخر يتأمل ، وكل منهما يخفى . تحت نفس قناع اللامبالاة وعدم الاكتراث الصدمة الكبيرة لكبريائهما .

وقال لوبين :

ـ المهم أن نعرف هل سنغرق قبل أو بعد وصول أبطال العدالة ، لأننا سوف نغرق لا محالة ، وهذه هى الساعة الحاسمة لتحرير الوصية ، وأنا أوصى بكل ثروتى لصديقى العزيز شرلوك هولمز ... يا إلهى ! أن الزورق يقترب بسرعة بحيث أننى إذا أفلت من الغرق فلن أنجو من ديوزى ورجاله على الضفة اليسرى ولا من جانيمار على الضفة اليمنى .

وانشق الماء فى هذه اللحظة ، ودار القارب حول نفسه ، واضطر هولمز أن يتشبث بحلقة المجاديف ، وقال لوبين :

أرجوك يا أستاذ أن تخلع جاكتتك فسوف يكون من السهل عليك أن تسبح حتى الشاطىء عندئذ ... لا تريد ... سألبس أنا إذن جاكتتى .

قال هولمز عندئذ وقد خرج عن صمته :

ـ أنك تتكلم كثيراً يا مسيو لوبين . وقد قدمت لى دون أن تدرى المعلومات التى كنت أبحث عنها .

ـ كيف هذا ؟ كنت تبحث عن معلومات ولم تقل لى ذلك .

ـ لست بحاجة إلى أحد . بعد ثلاث ساعات سأمضى إلى مسيو ومدام ايمبرفال واذكر لهما مفتاح السر . وهو ..

ولم يفرغ من عبارته ، فقد غرق القارب فجأة وجذبهما معه ، ولكنه لم يلبث أن طفا غير أنه كان مقلوباً . وارتفعت الصيحات على الشاطىء ، ثم تبع صمت مقلق . وفجأة صيحات أخرى تدل على الدهشة فقد ظهر أحد الغارقين .

كان شرلوك هولمز . والقوا إليه بحبل من الزورق . وبينما كانوا يرفعونه لوسطه قال صوت خلفه :

- مفتاح السر أيها الاستاذ العزيز ... من المؤكد أنك عرفته . بل أننى لأعجب كيف لم تعرفه قبل ذلك . ولكن .. فيم سيخدمك ذلك ؟ . أن فى استخدامك له هزيمتك بالذات .

كان لوبين جالساً على ظهر القارب فى هدوء تام . واستطرد يقول :

- افهمنى جيداً يا استاذى العزيز . لن تستطيع شيئاً .. لن تستطيع شيئاً على الاطلاق . ستجد نفسك فى موقف يرثى له .

وصوب فولنفان مسدسه نحوه وقال :

- سلم نفسك يا لوبين .

- أنت رجل غير مهذب أيها الرقيب فولنفان .. قاطعتنى فى منتصف عبارة . كنت أقول ..

اطلق فولنفان الرصاص ، فترنح لوبين ، وتشبث بحطام القارب لحظة ، ثم اختفى .

***

كانت الساعة الثالثة عندما وقعت هذه الأحداث . وفى تمام الساعة السادسة دخل هولمز مخدع شارع موريللو ، مرتدياً بنطلوناً قصيراً جداً وجاكيت ضيقة جدا . استعارهما من صاحب حانة فى نويى ، وطلب مقابلة مسيو ومدام دابمرفال .

ووجداه يتمشى جيئة وذهاباً . وقال عندما رآهما :

- هل الآنسة هنا ؟

- نعم ، فى الحديقة ، مع البنتين .

- حيث أن الحديث الذى سيدور بيننا يا سيدى البارون حاسم وخطير فاننى أرجو أن تكون الآنسة ديمون موجودة معنا .

- هل لابد .

- أرجو أن تتذرع بقليل من الصبر يا سيدى . أن الحقيقة ستظهر بكل وضوح من الوقائع التى سأذكرها أمامكم بكل دقة .

- ليكن . احضرى أليس ديمون يا سوزان .

نهضت مدام دامبرفال ، وعادت على الفور وبرفقتها أليس ديمون . وكانت هذه الأخيرة شاحبة اللون تقريباً ، على غير العادة . ووقفت بجوار المنضدة دون أن تسأل عن سبب استدعائها . وقال هولمز عندئذ :

- بعد أيام كثيرة من التحقيق يا سيدى ، ورغم أن بعض الأحداث قد غيرت نظريتى فى وقت ما ، فاننى مازلت أقول لكما أن المصباح قد سرقه شخص من البيت .

- ما اسمه يا سيدى .

- أننى أعرفه .

- والأدلة ؟

- أن ما لدى من الأدلة تكفى لادانته .

- ولكن لا يكفينى أن يدان . يجب أن يعيد الينا ..

- المصباح ؟ . والأشياء الأخرى ؟ . أنها معى يا سيدى .

بدت الدهشة على البارون وزوجته ، فى حين راح هولمز يذكر كيف عثر على كتاب الحروف الأبجدية ثم رحلة بريسون إلى الشاطىء ، وثم انتحاره .

وغرق القارب واختفاء لوبين ، وعندما فرغ ، قال البارون في صوت خافت :

ـ لا يبقى عليك الآن إلا أن تذكر لنا اسم الجانى ، فمن هو ؟

ـ هو الشخص الذى انتزع الحروف من هذا الكتاب ، والذى أتصل بارسين لوبين بهذه الطريقة .

ـ وكيف عرفت أن ارسين لوبين هو الذى اتصل بذلك الشخص ؟

ـ عرفت ذلك من ارسين لوبين نفسه .

وبسط له قصاصة مبتلة من الورق ، هى التى كان لوبين قد اعطاها له وقال :

ـ لاحظ يا سيدى أن الحروف التى بها هى نفس الحروف المقتطعة من الكتاب . وبعد معالجتها استطعت أن أكون هاتين الكلمتين : اجب اكون ، وقد زاد لوبين إليها بعض الحروف بحيث أصبحت العبارة : اجبني ايكو دى فرانس ، وهذه الجريدة هى لسان حال أرسين لوبين ، كما هو معروف . وقد مضيت إلى إدارتها وهناك اكتشفت قصة العلاقة بين ارسين لوبين وشريكته .

ووضع هولز سبع جرائد مختلفة من جريدة ايكو دي فرانسي مفتوحة كلها على الصفحة الرابعة حيث تنشر الاعلانات المبوبة ، واشار إلى سبعة سطور هذا نصها :

١ـ ارس . سيدة تطلب حمايتك ٥٤٠ .

٢ـ ٥٤٠ .. انتظر الايضاحات .

٣ـ ا . ل . تحت رح . عو .. ضائعة .

٤ـ ٥٤٠ اكتبى العنوان . ساقوم بتحقيق ..

٥ـ ا . ل . ١٨ شارع موريللو .

٦ـ ٥٤٠ . الحديقة ، الساعة الثالثة ... زهور بنفسج .

٧ـ ٢٢٧ موافق السبت . ساكون صباح الاحد . الحديقة . صاح مستر دامبرفال : وهل تسمى كل هذا قصة مفصلة ؟

ـ نعم ، وبشىء قليل من الاهتمام سوف تشاركنى الرأى . فبادىء ذى بدء ، سيدة أشارت إلى نفسها برقم ٥٤٠ تطلب حماية أرسين لوبين . ورد عليها لوبين وطلب منها أن توضح الأمر ، فأجابته بأنها تحت سيطرة عدو، هو بريسون دون أى شك ، وأنها ضائعة إذا لم يخف لمساعدتها . ولوبين حريص ولا يريد التورط مع إمرأة غريبة فيطلب عنوانها ويقترح إجراء تحقيق . وتتردد السيدة أربعة أيام ، ويمكنك أن تراجع التواريخ . وأخيراً وإذ تتعجلها الأحداث ، وتحاصرها تهديدات بريسون تذكر له اسم شارع موريللو . وفى اليوم التالى يذكر لها ارسين لوبين أنه سيكون فى حديقة مونسو فى الساعة الثالثة ، ويطلب من المرأة الغريبة أن تضع باقة من زهور البنفسج كوسيلة للتعارف . وبعد ذلك ، انقطعت المراسلات ثمانية أيام . إذ لم تعد هناك حاجة لارسين لوبين و للسيدة لكى يتراسلا عن طريق الجريدة انهما إما كانا يلتقيان ، وإما كانا يتراسلان مباشرة . ودبرت خطة ، وإرضاء لطالبات بريسون تقوم السيدة بسرقة المصباح ويبقى بعد ذلك تحديد اليوم . وقد دفع الحرص السيدة إلى أن تقوم بمراسلاتها عن طريق كلمات مقتطعة وتلصقها ، وتحدد يوم السبت وتضيف اجبنى ايكو ٢٢٧ . ورد لوبين بأنه موافق وبأنه سيكون فى انتظارها فى حديقة مونسو صباح الأحد . وتقع السرقة صباح يوم الأحد .

قال البارون: الواقع أن كل ما ذكرته يتطابق تماماً، والقصة هكذا قد اكتملت.

واستطرد هولمز يقول:

ـ تقع السرقة إذن، وتلتقى السيدة بلوبين وتخبره بما فعلت وتمضى بالمصباح الى بريسون. وتقع الأمور عندئذ كما توقع لوبين فقد انخدعت العدالة بالنافذة المفتوحة وبالثقوب الأربعة على الأرض وبالخدشين على الشرفة واقتنعت بنظرية السرقة عن طريق السطح. واطمأنت السيدة.

قال البارون: أننى مقتنع بهذا التفسير المنطقى. ولكن السرقة الثانية.

ـ تسببت السرقة الأولى فى السرقة الثانية. فقد ذكرت الجرائد كيف اختفى المصباح. وخطر للبعض إعادة تمثيلية السطو والاستيلاء على ما لم يسرق فى المرة الأولى. وكانت سرقة حقيقية فى تلك المرة غير مفتعلة.

ـ لوبين بالطبع.

ـ كلا. فلوبين لا يتصرف بمثل ذلك الغباء، ولا يطلق الرصاص على الناس مهما كان السبب.

ـ من إذن.

ـ بريسون دون أى شك. بدون علم السيدة التى هددها. بريسون هو الذى دخل هنا، وهو الذى طاردته وهو الذى أصاب صديقى واطسون بالسكين.

ـ هل أنت واثق مما تقول؟

ـ كل الثقة. فقد كتب له أحد شركائه أمس، قبل انتحاره رسالة تثبت أنه وجدت مفاوضات بين هذا الشريك وبين لوبين لاسترداد جميع المسروقات،

وطالب لوبين بكل شىء: الشىء الأول (أى المصباح) وكذلك الأشياء الأخرى التى سرقها فى المرة الثانية. ثم أنه كان يراقب بريسون. وعندما مضى هذا الأخير إلى شاطىء النهر مساء أمس تعقبه أحد رجال لوبين فى نفس الوقت الذى كنا نتعقبه فيه.

ـ وماذا فعل بريسون على شاطىء النهر؟

ـ علم أننى أتقدم فى تحقيقى.

ـ وممن علم؟

ـ من نفس السيدة. وكانت تخشى أن يتسبب اكتشاف المصباح فى اكتشاف مغامراتها. علم بريسون إذن فجمع فى صرة واحدة كل ما يمكن أن يورطه والقاها فى مكان يستطيع منه استعادتها بعد أن يزول الخطر. وإذا رأى أثناء عودته أننى أطارده، أنا وجانيمار، ولما كان ضميره يثقله بسبب جرائم أخرى فقد فقد عقله وانتحر.

ـ ولكن ماذا كان فى تلك الصرة.

ـ المصباح وتحفك الأخرى.

ـ هى ليست معك إذن؟

ـ بعد أن اختفى لوبين، انتهزت فرصة الحمام الاجبارى الذى ارغمنى لكى أمضى إلى المكان الذى اختاره بريسون، ووجدت الصرة وبها الأشياء المسروقة، ملفوفة فى قطعة من القماش المشمع. وها هى على هذه المنضدة.

من غير أن ينطق البارون بكلمة، قطع الدوبارة والقماش المبتل وأخرج المصباح، وأدار صامولة صغيرة فى أسفله و عالج الوعاء بيديه

الاثنتين ، وفكه وفتحه من ناحيتين متساويتين ، ووجد التحفة الذهبية المرصعة بالياقوت والزمرد .

***

كان في ذلك المشهد الطبيعي جداً في ظاهرة والذي يبدو كمجرد عرض للحقائق شيء مثير ومتساوى ، وهو الاتهام القاطع الذي وجهة هولمز في كل كلمة من كلماته إلى الآنسة ، وكذلك صمت أليس ديمون العجيب .

فأثناء ذلك الحديث الطويل القاسي الذي تدعمه الأدلة لم يصدر من الفتاة ماينم على التمرد أو الخوف . ففيم كانت تفكر . ثم ماذا ستقول عندنا سيتعين عليها أن ترد وأن تدافع عن نفسها وتحطم الحلقة الحديدية التي أحاطها بها هولمز بكل براعة .

ودقت تلك اللحظة ، ومع ذلك فقد لاذت الفتاة بالصمت . وصاح مسيو دمبرفال :

ـ تكلمي .. تكلمي إذن .

ولكنها لم تنطق ، فعاد يقول في إصرار :

ـ كلمة واحدة تبررين بها نفسك ... كلمة أنكار فأصدقك .

ولكنها لم تنطق بتلك الكلمة .

واجتاز البارون الغرفة بسرعة ثم عاد أدراجه . وعاد فاجتازها من جديد . وخاطب هولمز :

ـ كلا يا سيدى . لا يمكن أن أصدق . هناك جرائم مستحيلة ، وهذه تتنافى مع كل ما أعرف وكل ما أرى منذ سنة .

وألقى يده على كتف الانجليزى وأردف :

ـ ولكن ، أنت نفسك يا سيدى ... هل أنت واثق تماماً أنك غير مخطىء .

وتردد هولمز كرجل هوجم فجأة ولم يسعفه الوقت للدفاع . ومع ذلك فقد ابتسم وقال :

ـ إن الشخص الوحيد الذي اتهمه كان يعرف بحكم وضعه في هذا البيت أن هذه التحفة الفريدة موجودة في المصباح .

تمتم البارون : لا أريد أن أصدق .

ـ سلها بنفسك .

وكان ذلك في الواقع هو الشيء الوحيد الذي لم يحاوله للثقة العمياء التي توحيها إليه الفتاة . ومع ذلك فما كان بوسعه تجاهل الأمر الواضح . فاقترب منها وحدجها بعينيه وقال :

ـ أهي أنت يا آنسة ؟ . أ أنت التي أخذت التحفة ؟ ... أ أنت التي راسلت ارسين لوبين وافتعلت السرقة .

أجابت : نعم يا سيدى .

ولم تغض الطرف . ولم يبد على وجهها خجل أو ارتباك ، فتمتم :

ـ هذا غير ممكن . ما كنت لأظن أبداً .. أنت آخر شخص أشك فيه .. كيف فعلت ذلك أيتها التعسة ؟

قالت : أنني فعلت كما قال مسيو هولمز . أتيت في مساء يوم السبت إلى هذا المخدع وأخذت المصباح ، وفي الصباح ... أعطيته لذلك الرجل .

صاح البارون : ولكن لا ... أن ما تقولين غير مقبول .

- غير مقبول ... ولماذا ؟

- لأنني وجدت في الصباح باب هذا المخدع موصداً بالمزلاج .

اضطرم وجهها ، وارتبكت ، ونظرت إلى هولمز كما لو لكي تطلب منه النصح . ودهش هولمز لارتباكها أكثر من دهشته لاعتراض البارون . أليس لديها ما ترد به . ؟ هل اعترافها بما قدمه من تفسير سرقة الصباح يخفى اكثوبة تهدم الاستقصاءات التي قام بها . وعاد البارون يقول

- كان هذا الباب مغلقاً . وأؤكد أنني وجدت المزلاج في موضعه كما تركته بالأمس . فلو أنك دخلت من هذا الباب كما تزعمين فقد كان لابد أن يفتحه لك أحد من الداخل ، أي من مخدعنا أو من غرفتنا . ولم يكن هناك أحد في هاتين الغرفتين . لم يكن هناك أحد غيرى أنا وزوجتي .

إنحنى هولمز فجأة ، ودفن وجهه بين يديه لكي يخفى احمراره . فان شيئاً كما لو أنه ضوء عنيف صدمه وتركه مبهوراً ، ضيق الصدر . فقد تكشف أمامه كل شيء ، كمنظر مظلم انقشع عنه الظلام فجأة .

كانت أليس ديمون بريئة .

أليس ديمون بريئة . كان هذا أمراً مؤكداً ، وكان فيه في نفس الوقت تفسيراً للضيق الذى أحس به فى أول يوم اشتبه فيه فى الفتاة . كان يعلم ورأى أمام عينيه على الفور الدليل القاطع على براءتها .

ورفع رأسه ، وبعد بضع لحظات حول عينيه ، وبطريقة طبيعية ، وبقدر ما استطاع نحو مدام دامبرفيل .

كانت شاحبة شحوب المرء عندما تواجهه أشد ساعات حياته حرجاً . وكانت تحاول اخفاء يديها اللتين سرت فيهما الرعشة . وفكر هولمز لحظة

ثري وتفضح نفسها » .

قف بينها وبين زوجها وبه رغبة ملحة فى إبعاد الخطر المخيف الذى هد حياة ذلك الرجل وتلك المرأة ، وذلك بسببه هو . وسرت الرعشة فى كل كيانه ، فان نفس الحقيقة التى بهره ضوؤها أضاءت وجه البارون ، وفهم دوره كل شيء .

وفى محاولة يائسه وقفت أليس دايمون ضد الحقيقة فقالت :

- أنت على صواب يا سيدى ، فقد أخطأت . والواقع أننى لم أدخل من هذا الباب وإنما مررت بالردهة ثم بالحديقة واستعنت بالسلم ..

جهد يائس للاخلاص . ولكن لا طائل منه . فقد نطقت كلماتها بالذات بزيفها . وكان الصوت غير ثابت ، ولم يعد للمخلوقة الرقيقة نفس العينين الصادقتين . فاطرقت برأسها وقد أحست بالهزيمة .

***

كان الصمت قطيعاً . وانتظرت مدام دامبرفال وقد اصفر لونها وتوترت فى وقفتها من فرط القلق والهلع . وبدا البارون كانه لا يزال يقاوم ، كما لو أنه لا يريد أن يصدق انهيار سعادته . وتمتم :

- تكلمي ... بررى لنفسك .

قالت فى صوت خافت جداً ووجهها شديد التوتر :

- ليس لدى ما أقول يا صديقى المسكين .

- إذن . والآنسة ؟

- أن الآنسة انقذتنى . باخلاصها .. وحبها . وباتهامها لنفسها .

- انقذتك ؟ .. ومن أى شىء ؟

- من ذلك الوغد .

- بريسون ؟

- نعم . فقد كان يهددني أنا ... عرفته عند صديقه لى .. وكنت من الجنون بحيث استمعت إليه .. أوه ، لا شىء يستحق غفرانك .. ومع ذلك فقد كتبت إليه رسالتين ، ستراهما .. فقد اشتريتهما منه .. وأنت تعرف كيف .. أوه ، ترفق بى .. فشد ماعانيت وبكيت .

- أنت .. أنت يا سوزان ؟

ورفع قبضتيه المضمومتين عليها يهم بأن يضربها ، وعلى استعداد لأن يقتلها ، ولكن زراعيه تهدلتا إلى جانبيه وتمتم من جديد

- أنت يا سوزان ؟ . أنت ؟ .. أهذا ممكن ؟

وبعبارات قصيرة مبتورة روت المغامرة المبتذلة المحزنة ، وصحوتها المذعورة أمام فظاعة الرجل ، وتبكيت ضميرها ، وخوفها ، وتكلمت أيضاً عن إخلاص أليس ووفائها ، فان الفتاة خمنت يأس سيدتها فانتزعت منها اعترافها وكتبت للوبين ، ودبرت قصة تلك السرقة لا نقاذها من براثن بريسون .

وعاد مسيو دامبرفال يقول وقد تقوس ظهره

- أنت يا سوزان ؟ . كيف أمكنك ..

***

فى مساء نفس اليوم كانت السفينة « مدينة لندن » التى تتنقل ما بين

اى ريوفر تبحر البحر الساكن فى بطء . كانت الليلة معتمة وهادئه ، والسحب الخفيفة تحلق فوق السفينة وتفصلها عن المكان اللانهائى حيث ينتشر نور القمر والنجوم .

ومضى أغلب الركاب إلى قمراتهم والصالونات ، ومع ذلك فقد بقى بعض منهم يتمشون على سطح الباخرة فى حين تمدد البعض الآخر فوق المقاعد المستطيلة ، تحت أغطية سميكة . وكان يرى هنا وهناك ومضات السيجارة ، ويتناهى إلى الاسماع الأصوات التى لا تريد أن ترتفع وتقطع الصمت العميق المهيب .

وراح أحد الركاب يتمشى فى خطوات منتظمة ، بطول حاجز السفينة ، يتوقف أمام فتاة مستلقاة فوق مقعد ، ونظر إليها فاحصاً . وإذ رآها تتحرك قليلاً قال :

- كنت أظنك نائمة يا آنسة أليس .

- كلا . كلا يا مسيو هولمز .. لا أريد أن أنام ... كنت أفكر .

- فيم ؟ أ أكون متطفل إذا سألتك ذلك ؟

- كنت أفكر فى مدام دابرفال . لا ريب أنها حزينة ، فقد ضاعت حياتها .

أسرع يقول : كلا . فان غلطتها ليست من تلك التى لا تغتفر سينسى مسيو دامبرفال هذه الغلطة . بل أنه كان ينظر إليها باقل قسوة ونحن نغادر القصر .

- ربما .. ولكن النسيان سيطول .. وهى تتألم .

- أنك تحبينها كثيراً ؟

- نعم . و ذلك هو الذى منحنى القوة لكى ابتسم و أنا ارتجف من

الخوف ، ولكى أنظر إليك مواجهة فى حين أننى كنت أتمنى الهرب .

ـ ويحزنك أن تفارقيها ؟

ـ يحزننى جداً ، فليس لى أهل ولا أصدقاء ، لم يكن لى غيرها .

قال الانجليزى وقد بلبله هذا الحزن :

ـ سيكون لك أصدقاء ، وأعدك بذلك .. فان لى علاقات .. ونفوذ كبير . وأؤكد لك أنك لن تندمى على وظيفتك .

ـ ربما ، ولكن لن تكون مدام داميرفال هناك .

ولم يتبادلا أى حديث آخر . ودار شرلوك هولمز مرتين أو ثلاث مرات بالباخرة ، ثم عاد وجلس بجوار زميلته فى السفر .

وأخذ الضباب يتقشع ، وبدا كان السحب تنفصل عن السماء ، ولمعت النجوم . وأخرج هولمز غليونه من جيب معطفه وحشاه ، ولم يفلح فى إشعال عيدان الثقاب الأربعة التى حكها الواحد بعد الآخر . ولما لم يكن معه غيرها فقد نهض ، وقال لرجل يجلس على بعد خطوات :

ـ هل أجد معك عوداً من الثقاب .

أخرج الرجل عوداً من علبة معه وحكه . وظهرت شعلة على الفور رأى لوبين على ضوئها أرسين لوبين .

***

ولولا تلك الحركة البسيطة ، وهى حركة ارتداد تكاد لا تلحظ لا فترض لوبين أن هولمز كان يعلم بوجوده على الباخرة . ولكن والحق يقال بقى الانجليزى سيد نفسه ، ومد يده بحركة طبيعية جداً للغريمة وهو يقول :

ـ أراك دائماً فى صحة جيدة يا مسيو لوبين .

هتف لوبين وقد أعجبه هدوء الانجليزى : مرحى !

ـ مرحى . ولماذا ؟

ـ لماذا ؟ .. أنك ترانى أظهر أمامك كما لو كنت شبحاً ، بعد أن شاهدتنى أغرق فى نهر السين ، ومع ذلك فيبرود ، بل بمعجزة من البرود الانجليزى المعروف لم تصدر منك بادرة ذهول ، ولا كلمة دهشة . ولعمرى أعود فأقول مرحى .. هذا عجيب .

ـ ليس هذا بعجيب ، فقد رأيت من طريقة سقوطك من فوق القارب أنك سقط طواعيه وأن رصاصة الشرطى لم تصبك .

ـ وانصرفت أنت قبل أن تعرف ما حدث لى .

ـ ما حدث لك . كنت أعرف أنك ، فقد كان هناك خمسمائة شخص يتحكمون فى مساحة نحو كيلو متر من ضفتى النهر ، وكان اعتقالك اكيداً إذا نجوت من الموت .

ـ ومع ذلك فها أنذا أمامك !

ـ مسيو لوبين ، هناك شخصان فى الدنيا لا يدهشنى فيهما شىء ، أنا أولهما ثم أنت .

***

وهكذا تصالح الرجلان .

فاذا كان هولمز لم يفلح فى اجراءاته ضد ارسين لوبين ، واذا كان لوبين قد بقى بالنسبة له العدو الأكبر الذى لابد له أن يتخلى نهائياً عن اعتقاله ،

وإذا كان يحتفظ دائماً بالتفوق أثناء النضال ، فان الانجليزى ، قد وجد بإصراره العجيب المصباح ، كما سبق أن عثر على الماسة الزرقاء . ولعل النتيجة هذه المرة أقل بريقاً ، ولا سيما من وجهة نظر الجمهور لأن هولمز اضطر أن يلزم الصمت عن الظروف التى أعاد بها المصباح وأن يعلن أنه لا يعرف اسم الجانى . ولكن من رجل لرجل ، ومن لوبين لهولمز ، ومن المخبر السرى للص لم يكن هناك بحق لا غالب ولا مغلوب ، فان كلا منهما يمكن أن يزعم أنه على قدم المساواة مع الآخر من ناحية الفوز .

وتبادلا الحديث إذن كغريمين لطيفين ألقيا بأسلحتهما ، وقدر كل منهما الآخر حق قدره .

وتلبية لرغبة هولمز ، روى لوبين كيفية هربه فقال :

ـ ذلك إذا كان يمكن أن نسمى ذلك هرباً ، فقد كان الأمر بسيطاً جداً . كان اصدقائى مرابطين فى المكان ، لأننا كنا قد تواعدنا على اللقاء لانتشال المصباح . وبعد أن بقيت نصف ساعة تحت القارب المقلوب ، انتهزت لحظة كان فولفان ورجاله يبحثون فيها عن جثتى بطول الضفتين وصعدت فوق حطام القارب ، والتقطنى زملائى وهم يمرون بى بزورقهم البخارى ، وانطلقوا تحت العيون المذهولة لخمسمائة رجل ، ومعهم جانيمار وفولنفان .

صاح هولمز : عظيم جداً .. والآن ، ألديك عمل فى انجلترا ؟ ..

ـ نعم .. تصفية بعض الحسابات .. ولكننى نسيت .. ومسيو دامبرفال ؟

ـ أنه يعرف كل شىء .

ـ آه يا استاذى العزيز ! ماذا قلت لك ؟ أن الضرر لا يمكن إصلاحه الآن . ألم يكن من الأفضل أن تتركنى اتصرف وفق إرادتى ؟ .. لو أنك

تركتنى يوماً أو يومين لا ستردت المصباح والتحف من بريسون ولأعدتها إلى دامبرفال ، ولباشر هذان الزوجان البائسان حياتهما فى هدوء ولكن بدلاً من ذلك ..

ضحك هولمز وقال : بدلا من ذلك عقدت الأمور وبذرت الشقاق فى أسرة كنت مكلفاً بحمايتك .

ـ يا إلهى ! .. نعم . كنت أحميها . وهل من الضرورى أن أسرق دائماً وأخدع ؟

ـ إذن فأنت تفعل الخير أيضاً .

ـ عندما أجد الوقت . ثم أن هذا يستهوينى . وأرى أن من الغريب حقاً أنى قمت فى المغامرة التى شغلتنا بدور ملاك الخير الذى يسعف وينقذ فى حين أنك أنت قمت بدور ملاك الشر الذى يجلب اليأس والدموع .

احتج الانجليزى قائلاً : الدموع ! ..

ـ طبعاً . فان أسرة دامبرفال قد تقوضت وأليس ديمون تبكى ..

ـ لم يكن بمقدورها أن تبقى ، فقد كان لابد أن يكتشف جانيمار الحقيقة . ومنها يصل إلى مدام دامبرفال .

ـ أننى أشاركك الرأى تماماً يا استاذ .. ولكن من المخطىء .

***

مر أمامهما رجلان ، وقال هولمز يخاطب لوبين بلهجة تغيرت قليلاً :

ـ هل تعرف من هذان السيدان ؟

ـ أظن أن أحدهما قبطان الباخرة ؟

- والآخر ؟

- لا أعرفه .

- أنه مستر اوستن جيليت ، ووظيفته فى انجلترا تعادل وظيفة مسيو ديبوا ، مدير الأمن فى فرنسا .

- آه .. يا لها من فرصة .. هل تتكرم وتقدمنى إليه .. أن مسيو ديدوا من أعز أصدقائى ، ويسرنى أن أقول نفس القول عن مستر أوستن جيليت .

وظهر الرجلان من جديد فقال هولز وهو ينهض :

- وإذا عملت بكلمتك ؟

وكان قد أمسك بمعصم ارسين لوبين وراح يضغط عليه بقوة .

- لماذا تضغط بقوة هكذا يا أستاذ ؟ ... انتى على استعداد لأن أتبعك .

والواقع أنه استسلم له دون مقاومة . وكان الرجلان قد ابتعدا ، فاسرع هولز خلفهما وقد انغرزت أصابعه في لحم لوبين بالذات . وقال فى صوت أصم ، فى نوع من العجالة المحمومة لكى يفرغ من الأمر بأقصى سرعة :

- هيا .. أسرع .

ولكنه لم يلبث أن توقف فجأة ، فقد تبعتهما أليس ديمرن ، وقال :

- ماذا تفعلين يا آنسة ؟ .. ليس هناك داع .. لا تأتى معنا .

وكان لوبين هو الذى رد فقال :

- ارجوك أن تلاحظ يا أستاذ أن الآنسة لا تتبعنا طواعية ، فاننى اضغط على معصمها بنفس القوة التى تضغط بها أنت على معصمى .

- ولماذا ؟

- كيف هذا ؟ ولكننى اتمسك جداً بأن أقدمها هى الأخرى ، فان دورها فى قضية المصباح أكثر أهمية من دورى ، فبصفتها شريكة أرسين لوبين ، وشريكة بريسون ، يجب أن تروى هى الأخرى قصة البارونة دامبرفال ، وهى قصة ستهم العدالة .. وبهذا تكون قد ذهبت بتدخلك فى صنع الخير إلى أقصى الحدود .. يا لك من رجل كريم يا هولز !

أطلق الانجليزى معصم أسيره .. وأطلق لوبين معصم الفتاة .

ووقفوا جامدين بضع لحظات ، وكل من الرجلين أمام الآخر ، ثم عاد هولز إلى مقعده وجلس ، وعاد لوبين والفتاة إلى مكانيهما . وقال لوبين :

- أرأيت يا أستاذ .. مهما صنعنا فلن نكون أبداً فى نفس الجانب ، فسوف تقف أنت فى ناحية من الهوة وأنا فى الناحية الأخرى . يمكن أن يحيى كل منا الآخر وأن يصافح كل منا الاخر ولكن ستكون الهوة بيننا دائماً .. ستكون أنت البوليس السرى شرلوك هولز دائماً وساكون أنا اللص ارسين لوبين دائماً ، وسينساق شرلوك هولز تقريباً مع غريزته كبوليس سرى ويطارد اللص ويحول أن يعتقله إذا أمكن ، وسيحاول أرسين لوبين أن يتجنبه ويهزأ به إذا استطاع .. وقد استطاع هذه المرة .. آه ... آه ...

وانفجر ضاحكاً ، ضحكة ساخرة وقاسية ويغيضه .

ثم انحنى نحو الفتاة في هدوء ووقار وقال :

- ثقى يا آنسة اننى ما كنت لأغدر بك حتى لو بلغت إلى نهاية المطاف ، فان ارسين لوبين لا يغدر بأحد ولا يخون أحداً أبداً ، وخاصة أولئك الذين يحبهم ويعجب بهم واسمحى لى أن أقول لك أننى احببتك واعجبتنى شجاعتك وقوتك .

وأخرج من محفظته بطاقة قطعها نصفين وناول نصفاً منها إلى الفتاة وقال في انفعال واحترام :

- إذا لم يفلح مستر هولمز في مساعيه فاذهبي إلى الليدى سترونجبولو ، وستجدين عنوانها بسهولة ، وقدمي لها نصف البطاقة وقولي لها هاتين الكلمتين « ذكرى أمينة » فتخلص لك الليدى سترونجبولو كما لو أنك اختها .

قالت الفتاة : شكراً .. سأمضى إلى هذه السيدة غداً .

هتف لوبين في ارتياح رجل أدى واجبه :

- والآن يا استاذى العزيز ، اتمنى لك ليلة طيبة ، فما زالت أمامنا ساعة قبل الوصول إلى البر ، وسأنتهز هذه الفرصة .

وتمدد بطول جسده ، وعقد يديه خلف ظهره .

****

كانت السماء مفتوحة أمام القمر ، وتألق نوره الرائع حول النجوم وفوق سطح البحر ، وراح يطفو فوق صفحة الماء ، وفي اللانهائية ، حيث تذوب آخر السحب .

وانفصل الشاطىء من الأفق المظلم ، وصعد الركاب إلى سطح الباخرة ، ومر مستر اوست جيليت وبرفقته رجلان عرف هولمز أنهما ضابطين من البوليس الانجليزى .

وكان لوبين راقداً فوق مقعده .

* * *

تمت